

لَيْسَ هَيْئًا نَبِيًّا

من هم الذين يوصمون بالكهانة ويصح أن يطلق عليهم لفظ الكهنة ؟

تابعنا قراءة كتاب (من هنا نبدأ) لحضرة مؤلفه الاستاذ خالد محمد خالد فالفيناها يقول :

« هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الاولى ... وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقاتلة ... أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وأشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاملاته ، ثم راحت تنفث سمومها المبيدة في دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجمل والمرض !! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها ، وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له ، وإعجابهم به . »

نقول لم يذكر الاستاذ مؤلف الكتاب الطائفة التي تمثل هذه الكهانة ، واكتفى بقوله : أنه يقصد بها جماعة تزويوا بزى رجال الدين ، وانتدبوا لبث تعاليمه في الناس ، وهم ليسوا منه في شيء . وقد أعملنا الفكر لنصل إلى تعيينهم ، فلم نهتد إلا الى رجال من جملة الناس تزويوا بزى رجال الدين ، واندسوا بين العامة يفتونهم بما لا يعلمون ، ويصورون لهم الدين على ما يهون ، تصورا يخرجهم عن حقيقته . وهم شر على الدين من أعدائه ، ويجب على أولى الأمر منهم من تسميم عقول السذج بضلالاتهم الضارة .

ولكننا رجعنا فقلنا لو كان يريد بهم هؤلاء فإن أمرهم أهون من أن يكتب

فيهم فصلاً يقع في نحو تسعين صفحة من الكتاب ، ومن أن يزعج هذا الانزعاج الذى يتمثل في هذه السطور من كتابه وهى :

« وهكذا تظل الحكمة ترحف وتمزج بتعاليم الدين ، وتحتل عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه ! وهنا ينجم ضرران خطيران : (الأول) استماع الناس لها ، واقتداؤهم بها حيث تسير بهم الى الهاوية ، بعد أن تسكرهم بتعاليمها التى تريحهم مما يتعب الكرام ، وحيث يظلون عبيد نصوص مميته ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب . (الثانى) أنه على مر الزمن لا بد من ظهور طبقة مثقفة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق الى الموت والظلام . . . فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذى يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين ، ثم أخذت تنمو فيه حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسماته وملاحظه . عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ، ويدعون الناس الى الشك فيه ، والتمرد عليه . هذا هو الذى حدث في أوروبا والغرب ، وهو الذى نخشى أن يحدث في الشرق إذا لم تبادر بعزل الحكمة عن الدين ، وتنقيته من شوائبها ، وتقديمه للناس وضيقاً متألقاً كيوم نزل من لدن حكيم عليم . »

قرأنا في الكتاب هذه العبارات ، فازددنا حيرة في تعيين الطائفة التى يسميها بالحكمة ، وبها من التأثير بحيث تحتل كماتها عقول الناس على أنها الدين الذى يجب أن يدعوا له ولا يناقشوه الخ ! نعم ازددنا حيرة ، لأننا لم نجرؤ أن نفهم منها أنه يريد بها علماء الدين ، فليس للعلماء دعوة غير ما ينشرونه في مجلثهم من المقالات ، وما ينادى به وعاظهم في الأقاليم ، من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر : ول هؤلاء أيضاً مجلة خاصة ينشرون فيها ما يعن لهم من البحوث ، وكلها من خير ما تثمره الثقافة الفاضلة والمذهب القويم ؛ فكان بحسب الأستاذ خالد أن ينقل عنهما بعض ما تنشرانه من الأضاليل ، ليرى قراءه بدليل محسوس كيف تسعم هذه الحكمة عقول إخوانه في الدين !

أعدنا نظراً فيما كتبه الأستاذ في (الحكمة) لعلنا نعرف أى الطوائف في مصر يريد . فأيناه يقول أيضاً :

هناك شيء اسمه الكهانة ، انحدرت إلينا من القرون الأولى ، وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقاتلة . . . أرادت أن تستغل ولاء الناس للدين فلبست لبوسه ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل عليه وتخالط بعض تعاليمه ، ثم راحت تفت سمومها المبيدة في دأب ومثابرة ، مباركة الرجعية الاقتصادية ، والرجعية الاجتماعية ، مدافعة عن مزايا الفقر والجهل والمرض ! ! ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها وتحرص عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة إلى عزل هذه الكهانة الخبيثة ، وتنقية الدين من شوائبها . .

ثم قال :

« قالى أى شيء تدعو الكهانة ؟ نستطيع أن نعرف الجواب من مناوئتها الحادة لرغبات المجتمع وطموحه ، فهندما اشتد احساس الشعب ببهؤسه وخصاصته ، وتضرم شوقا إلى عدالة اجتماعية يستجم فيها من وعناء لغوبه الطويل ، وبدا كأن الفرص تستجيب له ، وقام جلالته الفاروق يمدد بنفسه طريق اليقظة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء فى إحدى جلساته ، وخاطب الوزراء بنبرات حازمة مؤثرة تحمل آلام عشرين مليوناً من البشر : « جئت أطالب بحق الفقير والمحروم والمريض ، عندما حدث ذلك . . . رأينا الكهانة المصرية تحتط مذهباً عجيباً . . . إذ راحت تمطر الناس بخرافاتها ، وسال جشاؤها سيل العرم حاملاً مبادئها الخزينة المدبرة ، داعية الناس إلى القناعة المقدسة ، بيد أن الكهنة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق الناس إلى اقتناص المعام ، والبحث عن المال والجاه ! ، انتهى .

لما طالعنا هذه الفقرات رجعنا نشتك فيما ظنناه من أن المراد بالكهانة مذهب علماء الدين ، ففى عهد الناس أن واحداً منهم دعا إلى الرجعية الاقتصادية أو دافع عن مزايا الفقر والجهل والمرض ؟ أما كان يجدر بحضرة الكاتب أن يأتى بعبارة من خطابة منبرية لأحدهم ، أو كتاب وضعه بعضهم ، يثبت هذه التهمة عليهم ؟ وإذا كان الدينيون يستبطنون مذهب الرجعية ويعملون على ترويجه ، فكيف يعقل أنهم مع ذلك يقررون تدريس علم الاقتصاد السياسى فى كلياتهم ، وهو يثبت بأدلة لا تقبل النقص أن المال ضرورى للجماعات ضرورة الدم

للجسم الحي ، وأن لكل منهما دورة حيوية لا بد منها لحفظ الحياة الفردية والاجتماعية .

ثم إذا كان الدينيون المعاصرون رجعيين ، فكيف يعقل أن يخطوا في سبيل التجديد هذه الخطوات الجديدة الجريئة ، فيقرروا تدريس العلوم الطبيعية والرياضية والمذاهب الفلسفية الحديثة في كلياتهم ، ليتخرج الطالب آخذاً من كل علم بطرف ؟ .

إن المدارس والكتليات المسيحية تدرس هذه العلوم في العصور الحديثة ، ولكن لا تدرس منها إلا ما هو مؤلف بأقلام أعلامهم ، ولا تسمح بأن يلقيها إلا رجال منهم ، على خلاف كليات الأزهر فإنها تعين أساتذة هذه العلوم من الحاصلين على إجازات فيها من المدارس الأميرية ، ومن لا علاقة لهم بالدين أصلاً ، بل زادوا على ذلك فقرروا تدريس اللغات الأجنبية في تلك الكتليات ، وبالغوا في هذا التسامح فأرسلوا بأنجب طلبتهم إلى إنجلترا وفرنسا وألمانيا لدراسة هذه اللغات وإتقانها ، ودراسة بعض الفروع العلمية بها . فهل يظن بل هل يعقل أن يصدر مثل هذا التسامح كله من طائفة تدّين بالرجعية ، وتتمسك مثلها العليا من الجهل ، والمرض والفقر ؟ ؟ ؟

لست أريد بهذا أن أقول إن الدينيين وصلوا بقسامهم هذا ، الذي أصبح مضرب الأمثال ، إلى المثل العليا التي ينشدونها ويعملون للوصول إليها ، ولكني أريد أن أقول إن اتهام أولى الحل والعقد منهم بالرجعية ، وتشبيههم بالسكنة ، وعملهم في سبيل بلوغ المثل العليا ما رأيت ، يعتبر تجنياً يحار العقل في فهم مداه وفي تعليله !

إن الأزهر لم يبلغ هذا التطور الجديد من حياته إلا منذ سنين معدودة ، وهو ماضٍ في سبيل الوصول إلى ما يقتضيه هذا التطور من التجديدات بكل ما يملكه من وسيلة ، ولكن أمثال هذه الانتقالات تقتضي المصلحين وقتاً كافياً لشعر فيه ثمراتها المنتظرة منها ، بل لتشكل وتصلح للإنتاج والإثمار . ولو كان الناقدون يشاركون العاملين في أحداث هذا الانقلاب ، ويعانون بعض مشقاته والتوائمه ، لأدركوا أن كل جديد لابد له من وقت لينضج فيه ، ووقت آخر

ليؤتي ثمراته . فلو أمهل الأزهريون جامعهم ملاوة من الدهر مع مشاطرة كبار شيوخها جمودهم على النهوض بها ، لبلغوا الغاية في مدة وجيزة ، لاسيما وحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الأكبر الشيخ عبيد المجيد سليم ، من أشد الناس شغفا بجعل الأزهر مثلاً أعلى للجامعات الدينية : أما لوقعنا الثمرة قبل نضجها ، وعملنا على الإسراع بها قبل استيفائها أدوار إيناعها ، اضطررنا بحكم الظروف لانتظار زمن أطول للحصول على ما نخبه لمرضاتنا .

يقول مؤلفنا الفاضل :

« وما دمننا بحاجة الى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة ، فلا بد من العمل على خلق جيل جديد من الوعاظ وأئمة المساجد ، والأزهريون اليوم على أتم الاستعداد النفسى والذهنى للقيام بهذه الرسالة الجديدة . وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ، ومناهج علمية سليمة تتفق والوعى الجديد . فإذا أبى شيوخ الأزهر ذلك أو عجزوا عنه ، كان حقاً لزاماً على الدولة أن تنشئ في كل جامعة من جامعاتنا العلمية القائمة والتي ستقوم ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادئ الصحيحة التي تنهى الى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى التقدم والارتقاء ، ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ الكنيسة في أوروبا . ولا بد من الإهابة بالعلماء الراشدين كي يعرضوا كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالفاً ، وإذا كنا نقدر خطر تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الافكار أقوى من الجيوش ، فإن الدولة ستهم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على الكهانة ومكائنها ، فتؤلف بجمع العلماء ليقوم بالمهمة التي ذكرناها . وهى عرض التعاليم الدينية صحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف الكتب في ذلك ويشترك فيه علماء الدين واسعو الأفق مع صفوة تختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع ، انتهى .

ونحن نقول :

إن الحالة التي وسماها الاستاذ المؤلف بالكهانة ليس لها وجود في مصر ، وإن وجدت ففي طبقة من الجملة لا تخلو منها أمة في الأرض ، مهما بلغت من السمو العلمى والمدنى ، وإن كل ماتمناء حضرته لهذه الأمة من الرشد في الدين ، والفهم

الصحيح له ، لمواجهة فتنة عهدنا العلي المدنى الراهن ، حدث منذ أكثر من سبعين عاما بنبوغ الفيلسوف الإسلامى الجليل جمال الدين الأفغانى . وقد عاونه على نشر تعاليمه ، وبث أصوله وفلسفته ، جمهرة من نبغاء الأزهريين على رأسهم العلامة الجليل الشيخ محمد عيده ، فى مجلة تدعى العروة الوثقى أذاعوها فى الخافقين ، فتيةظ نباء المسلمين من سبائهم الذى كان قد طال عليهم الأمد فيه ، وشرعوا يوقظون من حولهم من لا بصر لهم بما هم عليه ، ولا بما سينادون إليه تحت ضغط شبهات علمية لاقدرة لهم على فهمها ، ولا على اتقاء آثارها : مهيين بهم إلى تدارك ما هم منتهون إليه من التدهور المادى والأدبى ، ثم منه إلى الفناء فى أمم ليس بينها وبينهم أية صلة من الصلات الروحية والاجتماعية ، ولكن كيف تصل هذه الدعوة الى قلوبهم ، بل الى أسماعهم ، وهم فى درجة من الامية لا تسمح لهم بفهم شئ مما يشغل بال هؤلاء المصلحين الذين يهيبون بهم الى طريق النجاة ؟ ومع هذا فان هذه التصيحات الإصلاحية التى بدأت ضعيفة متخاذلة ، أخذت تقوى واشتد رويدا رويدا حتى أصبح صوتها الآن مدويا فى الخافقين .

واليوم وقد زال خطر هذه الامية ، ونبع عندنا ألوف وألوف من رجال العلم والقلم ، وصدرت ألوف من المؤلفات تنشر أصول الإسلام الصحيحة ، وتدل على أن هذه الأصول أحكم وأكمل ما تأخذ به الأمم لبناء وجودها ، وفى العالم الإسلامى اليوم مئات من المجلات تبين ماهية الإسلام ، وتبرهن بالدلائل المحسوسة على أن تعاليمه تبنى فى مراميها الادبية والاجتماعية والعلمية جميع التعاليم الموجهة الى الأمم عامتها وخاصتها ، لتأخذ فى أسباب بناء مدنية فاضلة تناسب مواهب الإنسان وغاياته البعيدة ، وتنشر فى جميع البلاد التى يسكنها أبناء هذا الدين جرائد ومجلات تردد هذه الدعوة . وتنقل عن فلاسفة الأوربيين وعلمائهم ، إعجابهم بالدين الإسلامى وشهاداتهم له بأنه الدين الوحيد الذى يأخذ بيد الإنسانية الى الغايات القصية ، والمثل العليا البعيدة : قلنا اليوم وقد بلغ العلم بماهية الإسلام الى هذا الحد من الذبوع والانتشار ، هل يخطر على بال أحد أبناؤه أن يكتب ما كتبه الاستاذ خالد فى كتابه وهو قوله :

، انه على مر الزمن لابد من ظهور طبقة في المجتمع تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق إلى الموت والظلام فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضلل الذي يسوقه : من هو ؟ فيقال لها هو الدين عندئذ يصب هؤلاء المثقفون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات عنيفة ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتبرّد عليه . ، انتهى .

فهل يعقل ان يبلغ العالم بأجمعه صيت الاسلام في الحكمة ، وفي اسلوبه الفذ في إحياء الامم والشعوب ، وترقيتها أدبيا وماديا ، وفي ايقائها خلافة الله في الارض ، ولا يصل خبره الى طبقتنا المثقفة فيصبوا جام غضبهم عليه ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ؟ لا أظن ذلك

محمد فريد وجرى



مركز تحقيقات كميوتير علوم إسلامي

الْمُنْتَفِعُونَ بِكَلِمَاتِ الْقُرْآنِ

— ٢ —

لفضيلة الأستاذ الجليل الشيخ محمد محمد المدني

كتبت في العدد الماضي من مجلة الأزهر الغراء بعض ما أسعف به الخاطر فيما يدل عليه مثل قوله تعالى في وصف القرآن الكريم « هدى للمتقين ، وذكرى للمتقين ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، إلى غير ذلك من الآيات التي تشير لأرباب الدعوات وأصحاب الأفكار ، إلى أنه لا يكتفي في سيادة الحق وتقبله من الداعين إليه أنه حق ثابت تبدو معالمه ، ويعرف بسياها ، ولكن يجب أن يكون المدعوون إليه ذوي قلوب حية ، ونفوس غير ملتوية ، حتى يكونوا مستعدين لتلقيه ، وتقبله ، والارتفاع به .

وقد ظلت دعوة الإيمان تتردد في أرجاء مكة ثلاثة عشر عاما ، يصدر بها رجل منهم ، عرفوه بالصدق والأمانة ، وشهدوا له بالفضيلة والزكاة ، واختبروه بألوان الابتلاء ، فما تزلزل ولا تحول ، ومع ذلك لم تشرق على قلوب أهلها شمس الحقيقة ، ولم يتمكن رسول الله صلى الله عليه وسلم من المقام بينهم آمنا على نفسه ودعوته وأصحابه ، فهاجر إلى بيئة صالحة مستعدة ، هداه الله إليها ، فهدى به ، وأظهر دينه على الدين كله .

هذا المعنى الذي تناولته في مقالتي السابق يشير في نفسى معنى طالما رددته ورويت فيه ، هو أن هذا القرآن يعطى كل ذي اختصاص في ناحية من النواحي العقلية دليلا يناسبه ، على إعجازه وسموه وكونه من عند الله جل جلاله ، ومن ذلك أنه يتحدث عن النفوس البشرية في كثير من آياته حديث الخبير بها ، العارف بدقائقها وما تنطوي عليه ، وكثيراً ما أمر ببعض هذه المواطن فيه فأقف

عندها موقف المأخوذ بما لها من روعة وجلال ، إذ أرى فيها تحليلات نفسية قوية لا يطمع المشتغلون بالفلسفة وعلم النفس أن يصلوا إلى مداها مهما توغلوا في البحث ، وصوبوا وصعدوا في آفاق النظر .

ولنضرب لذلك مثلاً من الآية التي جرت إلى هذا الحديث وما اتصل بها من الآيات في أول سورة البقرة : ، ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، فقد قررت أولاً منزلة الكتاب الكريم بهذه العبارة الموجزة التي يضرب بها البلاء المثل في القوة ، ويتخذونها مثلاً لما تفيد الإشارة والتعريف باللام من التعظيم والتفخيم والقصر ، ثم نفت عنه الريب بهذا الأسلوب المفيد للعموم حيث أتت بالنسكرة في سياق النفي : ثم أثبتت بعد تعظيمه وتفخيمه ونفى جميع ألوان الريب والشك عنه هذه الحقيقة التي كانت موضع بحثنا في المقال السابق ، ثم جاءت بعد هذا الإجمال بالصفات التي تنطوي عليها كلمة المتقين ، فقالت ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، ويمارزونهم بنفقون ، والذين يؤمنون بما أنزل إليك ، وما أنزل من قبلك ، وبالأخرة هم يوقنون ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، .

فأفادتنا هذه الآيات في وصف المتقين خمس صفات :

الوصف الأول : الإيمان بالغيب ، والناس في هذه الناحية ليسوا سواء ، فمنهم من قر في نفسه أن الحياة هي ما يراه ويشاهده ويعرض كل حين من المحسوسات والمبصرات ، فتراه لا يؤمن إلا بما يحسه أو يصل إليه عن طريق من طرق العلم المادي ، ومنهم من يعلم أنه وما يبصر وما يفعل ذرة من ذرات هذا الكون العظيم الذي غاب عنه أكثره ، وأن وراء هذا الكون ما لا يعلم إلا الله ، فهو يقف عند حده ولا يغتر بما يعلمه ، ولا يتأني على الإقرار بضعفه وعجزه وقصوره وحاجته إلى اللجوء إلى القوة القاهرة الخفية التي تسيطر عليه وعلى كل ما في العالم ، والتي تجري في أحكامها وتصاريحها على سنن يعلم بعضها ويجهل أكثرها .

فأما الصنف الأول ، فإنه بمنأى عن هداية القرآن ، لا ينتفع بها ، ولا تعمل فيه ، لأن هداية القرآن تستلزم الإيمان برب القرآن ، وبأنه أوحى إلى عبده ما أوحى ، وبأن هذا الوحي كان صلة خاصة بين ملك سماوى وبشر أرضى

بإذن الله ، وعلى سنة منه ، وكل هذا غيب ، وهو لا يؤمن بالغيب ، وأما الصنف الثاني فهو إنسان الفطرة الذى يرى نفسه فى كل حال موضعاً لتأثيرات خارجة عنه ، فلا هى من نفسه ، ولا هى من بنى جنسه ، تأثيرات خفية تخيفه أحياناً ، وترجييه أحياناً ، وتضعفه أحياناً ، وتقويه أحياناً ، ويرى نفسه يأخذ بكل ما يقع عليه فكره من أسباب فى ناحية من النواحي ، ومع ذلك لا يصل إلى الغاية التى تطلع إليها وابتغاها ، إما لأن أسباباً أخرى غابت عنه ، وإما لأن مانعاً منع وليس فى حسابه ، فهو إذن قاصر ، ووسائله قاصرة ، وعلمه محدود ، وقدرته محدودة ، وهو لهذا مؤمن بالغيب ، واثق بأن قوة وراء القوى الظاهرة لا بد أن تكون ، ولا بد أن يؤمن بها ، وذلك هو مبدأ الإيمان بالغيب ، وذلك هو أول شروط الانتفاع بالقرآن ، والنزول على حكم القرآن .

الوصف الثانى : إقامة الصلاة ، والإيمان بالغيب لا يستلزم إقامة الصلاة ، فإن الأول علم ، والثانى عمل ، وكثيراً ما نجد مؤمنين بالله معترفين بالغيب لا يقيمون الصلاة ، وإقامة الصلاة شرط من شروط الانتفاع بهدى القرآن ، ذلك أن طبيعة الإنسان هى النسيان والصلاة تذكير ، فالمدامنة عليها من شأنها أن تقطع الجفوة ، وتفتح القلب فى الحين بعد الحين إلى وافدات الهداية ، وخواطر العرفان عن الله كما يقول المتصوفة ، وقد جربنا أن المرء إذا واظب على الاتصال بكبير ذى منزلة فى نفسه ، وهيبة فى قلبه ، فهم عنه ، وعرف إشاراته ومراميه ، وكان على بينة من روحه ، وما له من توجهات أو توجيهات ، وأن على العكس من ذلك المنقطع عنه ، البعيد عن مجلسه ، الذى لا يناجيه ولا يلاقيه ، فالعبد المواظب على حضرة مولاه ، الحريص على الوقوف بين يديه كل يوم خمس مرات مقبلاً لصلاته ، مؤدياً لها على وجهها ، كما يفهم من التعبير بمادة الإقامة ، لا بد أن يكسب من هذه الإقامة ، وتلك المواظبة على الحضرة ، روحاً يجعله أهلاً لأن يفهم وينفع ويهتدى .

الوصف الثالث : الإنفاق من الرزق ، وهو لازم لسماحة النفس وما تنطوى عليه من الجود ومحبة البذل .

إن البخل والكزازة والحرص على المال والضمن به عن مواضعه أماره على فساد الطبع ، وضعف الإيمان ، فأما كون ذلك أماره على فساد الطبع ؛ فلأن المال وسيلة لا غاية ، فإذا انقلب غاية ، وصار جمعه والاحتفاظ به مقصوداً لذاته ، فقد خرج صاحبه بذلك على الفطرة ، وجانب الوضع السليم ، وأما كونه أماره على ضعف الإيمان : فإن المرء لا يكمل إيمانه حتى يكون بما في يد الله أوثق منه بما في يده ، وليس كذلك البخيل .

وكثيراً ما ترى أناساً يصلون ويصومون ويقومون حتى إذا امتحنوا ولو بالقليل في أموالهم ، ليشدوا معروفاً ، أو يؤدوا حقاً ؛ رأيهم ينفذون رموسهم ، وينظرون إلى من يدعهم إلى ذلك نظر المغشى عليه من الموت .

فهؤلاء لست أقول قد خرج الإيمان من قلوبهم فإنهم مؤمنون ، وقد يبخل المؤمن ، ولكن أحداً منهم لن يكون صرافاً صافية ينعكس عليها نور القرآن ولن يفتح قلبه لتلقى هدايته كما تفتح قلوب ذوي السباحة والصفاء ومن هانت عليهم الدنيا .

الوصف الرابع : الإيمان بما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم وما أنزل من قبله ، ولا يصل إلى ذلك إلا من خلا قلبه من التعصب والتحيز ، فإن الذي يؤمن ببعض الكتب ويكفر ببعض كالذي يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ، والدين عند الله واحد هو الإسلام ، فإذا أن يؤمن المرء بالجميع وإما أن يكون كافراً ، وفي هذا بلاغ للذين يزعمون أنهم يمجدون في القرآن أو في الكتب السماوية بعض أحكام صالحة للعصر ، موافقة للحضارة والرقى ، وبعض أحكام يزعمونها رجعية عتيقة كالحدود أو تحريم الربا أو ما إلى ذلك مما فتوا في شأنه بما عندهم ، وهم عن أسرارهم غافلون ، فمثل هؤلاء لا تتجلى لهم هداية القرآن ، ولا ينتفعون بها ، لأنهم يحكمون فيها ما عندهم ، ولا يحكمونها هي فيما عندهم ، فهم بما عندهم مؤمنون ، وبما جاءهم من الله كافرون ، فكيف يرجى لهم النفع ، وينتظر منهم الاهتداء ؟ وإنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون .

الوصف الخامس : الإيمان بالآخرة ، وهذه العقيدة هي أجدى شيء على الإنسان من حيث تصفيته وتهيئته للانتفاع بهدى القرآن ، فإن المؤمن بأن وراء هذه الدار داراً يحاسب فيها كل امرئ على ما قدمت يداه ، فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ، تكون نفسه دائماً مستعدة لتقبل هداية القرآن ، التي كثيراً ما تعتمد على الترغيب والترهيب ، أما الكافر بذلك فإنه يسخر عما يسمع ، ويعتقد أنه غير مسئول عما يفعل ، ويقول : إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، فيحمله ذلك على أن يركب رأسه ، ويتأدى في غلوائه ، ويعرض عن كل نصيح ، ويخرج على كل هدى . ولذلك يصفهم الله تعالى بمثل قوله : إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون . ختم الله على قلوبهم ، وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم .

أما بعد . فهذا مثال من حديث القرآن عن النفوس ، ووصفه للطبائع البشرية ، ولنا إلى الموضوع عودة إن شاء الله .

مركز تحقيق وتحرير علوم إسلامي

بين رؤية وأبي مسلم

قال الاصمعي : حدثني رؤية قال : دخلت على أبي موسى صاحب الدعوة للعباسيين ، فلما أبصرني نادى يا رؤية ، فأجبتة :

لييك إذا دعوتني لبيكا أحمد رباً ساقى إليك

الحمد والنعمة في يديكا

قال : بل في يدي الله تعالى ، ثم قلت : يا أذن لي أمير المؤمنين في الإنشاد ؟ قال : نعم ، فأنشدته :

ما زال يأتي الملك في أقطاره وعن يمينه وعن يساره

مستعراً لا يصطلي بناره حتى أقر الملك في قراره

فقال : يا رؤية إنك أتيتنا وقد شف المال ، واستنفذه الإنفاق ، وقد أمرنا

لك بجائزة ، وهي نافذة يسيرة ، ومنك العمود وعلينا المعول .

من زهاراته

القرآن كتاب جامع شامل

لفضيلة الأستاذ الشيخ فكري ياسين

أخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم عن ابن مسعود قال : « أنزل في هذا القرآن كل علم ، وبتين فيه كل شيء ، ولكن علمنا يقصر عن إدراك ما بتين لنا في القرآن . »

* * *

مهما كتب الكتّابون ، وأجاد المنشئون ، وأبدع المؤلفون ، وأحسن الباحثون ، وأكثروا من الحديث عن القرآن ، وبيان أسرارهِ ومقاصده ، واستنباط أحكامهِ وحكمهِ ، وإظهار مبادئهِ وتعاليمهِ ، والكشف عن فضائلهِ ومحاسنه ، فإنهم لن يبلغوا شأوَ السنة في هذا المصنوع ، ولن يصلوا ما جاءت به من فرائد وآيات ، أو على الأقل لن يخرجوا عما رسمته من مناهج ، وأوصفت من معالم ، وعبدته من طرق ، وأوحى به من توجيهات ، وأرشدت إليه من موضوعات .

أجل ، فلقد تناولت الكلام عليه من كل نواحيهِ ، وعالجته من جميع أطرافهِ ، ولم تترك دقيقة ولا جليلة إلا ألمت بها ، أو دلت عليها ، أو أشارت إليها .

ومن أول ما تحدثت به السنة عن القرآن تبيان أنه كتاب سماوى جامع ، وسفر إلهى شامل ، وأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، ولم يدع سرا ولا حكما إلا صرح به ، أو رمز إليه .

نعم وإن كان هذا كله قد يكون معلوما من مثل قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شيء . » وقوله : « ما فرطنا في الكتاب من شيء . » ،

ومن الأمر بالسؤال عما لا نعلم في قوله : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ، إلا أن السنة قد زادت ذلك بيانا ، وأوسعته إيضاحا ، ووفته حقه من الشرح والتفسير .

ومن أجمع ما جاء في السنة مقررًا لذلك ، وناطقًا به ، ما أخرجه الترمذى وغيره عن عليّ رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، قلت : يا رسول الله ، وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تبارك وتعالى ، فيه نبأ من قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذي لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا تشعب معه الآراء ، ولا يشعب منه العلماء ، ولا تمثله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الذي لم تلتقه الجن إذا سمعته أن قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا ، من علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم » (١) .

وما أخرجه أبو بكر محمد بن القاسم عن عبد الله بن مسعود ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فنعلموا من مأدبته ما استطعتم ، ، وذلك أن المأدب العامرة الفاخرة ، تجمع في العادة شتى أنواع الاطعمة ، ويختلف الألوان والاصناف ، ويجد فيها الآكل ما يريد ويشتهي ، فشبه الحديث الشريف القرآن الكريم بصنيع صنعه الله عز وجل للناس ، لهم فيه خير ومنافع ، ومصالح وفوائد ، ثم دعاهم إليه .

وقد ورد غير هذا كثير من الأحاديث والآثار ، وكلها تؤيد ما ذكرناه ،

(١) في سند هذا الحديث الحارث بن عبد الله ، وقد قال عنه القرطبي : « وماء الشعبي بالكذب ، وليس بشيء » ، ولم يبن من الحارث كذب ، وإنما نقم عليه إفراطه في حب علي ، وتفضيله له على غيره ، ومن هاهنا — والله أعلم — كذبه الشعبي ، لأن الشعبي يذهب إلى تفضيل أبي بكر . وإلى أنه أول من أسلم ، ، وقال أبو عمر بن عبد البر : « وأظن الشعبي عوقب لقوله في الحارث الهذلي : حدثني الحارث ، وكان أحد الكذابين » .

وتشهد له ، ومن ثم كثرت عبارات العلماء في هذا المعنى ، وتعددت أقوالهم عنه ، وإن اختلفت صيغها باختلافهم في المشارب والمنازغ ، فقد قال الشافعي :
« جميع ما حكم به النبي صلى الله عليه وسلم ، فهو مما فهمه من القرآن » .

وقال غيره : « جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحيط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم خلا ما استأثر به سبحانه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة رضى الله عنهم وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، ومثل ابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهما ، حتى لقد قال : لو ضاع لي عقل بعير ، لوجدته في كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضائل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه » .

وقال آخر : « ما من شيء إلا يمكن استخراجُه من القرآن ، لمن فهمه الله تعالى ، حتى إن البعض قد استنبط أن عمره صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله سبحانه في سورة المنافقين : « ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها » ، فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ، ليظهر التغابن في فقده بنفس ذلك النبي صلى الله عليه وسلم » .

فهذا كله يدل على مقدار ما يشتمل عليه القرآن الكريم من علوم وفنون ، وغايات وأهداف ، وينبىء بأن عجزنا عن الإحاطة بها ، والوقوف على تفصيلاتها ، واستخراجها من مواطنها ، إنما يرجع إلى تقصيرنا في الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إلى معرفتها ، وإلى الفتور في الهمم والعزائم ، والقصور في المدارك والأنعام ، لا إلى خلو القرآن الكريم ، وتجرده من تلك المعاني والأغراض .

ومما تحدثت به السنة عن القرآن أيضاً ، إخبارها بأنه مؤيد للكتب السالفة ، ومصدق لما جاء فيها ، أورد بن أبي حاتم من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى : « ومبيناً عليه » ، قال : « القرآن أمين على كل كتاب كان قبله » .

فإن توجيه هذا الكلام أن القرآن قد تضمن تصديق جميع ما أنزل قبله ، لأن الأحكام التي فيه ، إما مقررة لما سبق ، وإما ناسخة - وذلك يستدعي لإثبات المنسوخ - وإما مجمدة ، وكل ذلك دال على تفضيل المجدد .

ويؤيد هذا ما جاء في سورة المائدة من قوله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ، ومهيمننا عليه » ، فقد قالوا في بيان معنى تصديقه للكتب السابقة عليه : إنه نزل حسبما نمت فيها ، أو نزل مطابقتها في أصل الملة والدين ، أو مطابقتها لما لم ينسخ ، كالقصص والمواعظ ، وبعض المحرمات ، كالكذب والزنا والربا ، أو نزل موافقا لجميع ما فيها ، والمخالفة في بعض جزئيات الأحكام ليست بمخالفة في الحقيقة ، بل هي موافقة لها من حيث إن كلا منها حق في عصره ، متضمن للحكمة التي يدور عليها فلك التشريع ، وليس في الكتب السابقة ما يدل على أبدية أحكامها المنسوخة ، حتى يخالفها ما ينسخها ، بل إن نطقها بصحة القرآن الناسخ لها نطق بنسخها ، وانتهاء وقتها الذي شرعت للمصاححة فيه .

وليس هذا من الهداء في شيء ، فإن المخالفة في تلك الأحكام المنسوخة إنما هو اختلاف عصر وزمان ، حتى لو تأخر نزول المتقدم لنزل على وفق المتقدم ، ولو تقدم نزول المتأخر لوافق المتقدم ، وإلى ذلك يشير ما أخرجه الإمام أحمد وغيره عن جابر أنه صلى الله عليه وسلم قال حين قرأ بين يديه عمر بن الخطاب رضي الله عنه شيئا من التوراة : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعي » ، وجاء في رواية الدارمي : « والذي نفس محمد بيده لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل ، ولو كان حيا ، وأدرك نبوتي لاتبعني » .

وقالوا في بيان معنى هيمنة القرآن على ما قبله من الكتب : إنه رقيب على سائر الكتب السماوية المحفوظة عن التغيير ، حيث يشهد لها بالصحة والثبات ، ويقرر أصول شرائعها ، وما يتأبد من فروعها ، ويبين أحكامها المنسوخة ، وقيل : إنه شاهد عليها بأنه الحق ، أو إنه حافظ لها ، ومؤتمن عليها ، كما قال سعيد ابن جبير : « القرآن مؤتمن على ما قبله من الكتب » .

وعلى أى حال ، خلاصة ما قيل فى بيان هذين المعنيين : أن الذى يؤخذ منهما فى الجملة هو موافقة ما أفادته السنة فى أخبارها الكثيرة من تأييد القرآن للمكتب السابقة ، وتصديقه لها ، وتقريره أو تعديله ، أو تجديده لأحكامها ، كما سلفت الإشارة إليه .

• • •

ومن حديث السنة عن القرآن كذلك ما جاء فيها شرحاً لمعناه ، وتفسيراً لنصوصه ، وتأكيذاً لمحكمه ، وتوضيحاً لمشكله ، وبسطاً لمختصره ، وتخصيصاً لعامة ، وتقييداً لخاصه . وتبييناً لما أجمل فيه من الأحكام ، كالصلاة والزكاة والحج والصوم والطهارات والذبايح والأنكحة ، وما يتعلق بها من الطلاق والرجعة والظهار واللعان وغير ذلك ، وهذا كبيان مواقيت الصلاة وركوعها وسجودها ، وسائر أحكامها ، وبيان مقادير الزكاة وأوقاتها ، ونُصَب الأموال المزكاة ، وتعيين ما يزكى وما لا يزكى منها ، وبيان انتهاء أمد الحكم الأول ، وهو الفسخ ، وكالبيان بطريق الإلحاق والقياس ، والتفريع على القواعد العامة ، وبيان الحكم الزائد على الكتاب ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، والحكم بالشاهد واليمين . وغير ذلك مما لو رحنا نستوعبه ونستوفيه ، ونستعرض قضاياها ومسائله ، ونستكمل نصوصه وأمثله ، اطال بنا القول ، وأعيانا الاستقصاء ، ومما نتركه هنا للكلام عليه فى موضعه إن شاء الله تعالى .

وعلى الجملة ، فقد توافرت أحاديث السنة عن الكتاب ، وامتدت إلى موضوعات كثيرة غير هذا ، كنزول القرآن وكيفية إنزاله ، وأول وآخر ما نزل منه ، واللسان الذى نزل به ، والأحرف التى نزل عليها ، وجمعه وترتيبه ، وكتابه وقرأته ، وتعليمه وتعلمه ، وفضله على سائر الكلام ، وحفظه واستظهاره ، وتعاونه واستذكاره ، وترتيبه وترجيعه ، وتحسين الصوت بتلاوته ، وخشية الله عند قرأته ، والرياء فيها ، والتأكل بها ، وما إلى ذلك مما هو موضوع لكثير من العلوم والفنون ، ومادة لطائفة من البحوث والدراسات ، ومما سيكون محلاً لمحاولاتنا المقبلة فى الفصول الآتية بعون الله وتوفيقه .

لغويات

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد علي الشجار

، احتاج محمد كتابا ،

يشيع هذا الاستعمال ، ولا يرى مستعملوه ضيقا ولا حرجا ، ولا يحتاج بعضهم شك في صحته في العربية . وهو بجانب لما درج عليه الاستعمال العربي منابذ له . فقد جرى العرب على أن يعدي ما صيغ من الحاجة بالحرف ، فيقال : احتاج محمد إلى كتاب ، وفي حاجة إلى كتاب . وفي الأساس : لا أحوجنى الله إلى فلان . وهذه حاجتي ، أي ما أحتاج إليه وأطلبه .

وهذا الخطأ قديم ، فقد قال^(١) ابن عنين ، وهو من شعراء الدولة الأيوبية ، وقد توفي سنة ٦٣٠ :
مرآة تحقيق قديم علوم

أنظر إلى بعين مولى لم يزل يولى الندى ، وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى : أحتاج ما يحتاجه فاغنم ثوابي والثناء الوافي
وقوله : « ثوابي ، أي الثواب من الله الذي يلحقك بإغاثتي . وفي بعض روايات الديوان :

فاغنم ثنأى والدعاء الوافي

وقوله : « تلافى ، يريد تلافى : ولم أقف على التلافى ، في التلاف فيما رأيت من المعاجم ، وكأنا مد ابن عنين لام التلاف وأشبع حركتها ، لجاء التلاف ؛ ويشفع له في ذلك موقف الشعر ، ورغبته في التجنيس الذي كان كغيره من البديع يصور إليه كل شاعر وكاتب في ذلك العصر . ولم يأت ابن عنين في ذلك بدعا من الأمر : فقد قال ابن هرمة من قبله :

وأنت من الغوائل حين ترمى ومن ذم الرجال بمنزاج

(١) أنظر ديوانه ٩٢ ، وروايات ابن خلكان في ترجمة الملك المعظم عيسى في أواخر حرف العين .

يريد بمنزج : وقال الراجز القديم :

قلت - وقد خرت على الكلكال : يا ناقى أما جلت من مجال

يريد الكلكال ، وهو صدر الدابة .

ولبقى ابن عنين قصة طريفة أحببت إبرادها . فقد كان أثيراً عند الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل من ملوك الدولة الأيوبية ، وكان ملازماً له ، فانقطع عنه مدة لمرضه ، وكتب إليه بهذين البيتين ، وكان الجواب على هذا أن عاده الملك المعظم ، وأعطاه صرة فيها ثلاثمائة دينار ، وقال : هذه الصلة ، وأما العائد . قال ابن خلكان ، وقد أورد هذه القصة في ترجمة الملك المعظم عيسى : . وهذه لواقعة ، لا كابر النجاح ومن هو في ممارسته طول عمره لاستعظم ذلك منه ، لا سيما هذا الملك . . وكان من شئنة ابن عنين أن يدخل في شعره الاصطلاح النحوى ويستعمل معانيه ، وقال ابن هشام في شرح القطر في مبحث وجوب تأخر إن وأخواتها على اسمها : . وما أحسن قول ابن عنين يشكو تأخره :

كأنى من أخبار إن ، ولم يحز له أحد في النحو أن يتقدما

وأعود لما كنت فيه من بحث ، فأقول : إن لابن عنين سلفاً قريباً منه هو يوسف بن محمد البلوتى صاحب كتاب د ألف باء ، وقد طبع هذا الكتاب . وهذا البلوتى أخذ عن السهيلي المتوفى سنة ٥٨١ ، وعن ابن الفخار ، ورحل إلى المشرق وأخذ عن علمائه : فأخذ عن الحافظ السافى بسكندرية ، وغزا مع صلاح الدين الأيوبي في الشام ، وتوفى في رمضان سنة ٦٠٤ ، وترجم له ابن الأبار في التكملة . وترجمته في المخطوطة المطبوعة تحت الرقم ٢٠٨٩ . وقد عنيت بإيراد تاريخ وفاته إذ خلا منه مظان هذا التاريخ : فكشف الظنون .

فقد تحدث عن كتابه د ألف باء ، وذكر محتوياته ، ولم يعرض لتاريخ وفاته وكذلك فهرس دار الكتب المصرية . وفي معجم المطبوعات العربية لسركيس : . قيل : توفى سنة ٥٧٦ ، وتراه يأتي بهذا القول على جهة الشك والتردد ولا يذكّر المراجع على عادته .

وأعود فأقول : إن البلوى قال في د ألب باء ^(١) ، :

خرجت من شيء إلى غيره وكله علم وقول شديد
يحتاجه القارىء والسامعو ن : السكل منهم راغب في المزيد
وتراه يستعمل د السكل ، بأل ، وفي هذا الاستعمال مجال القول والنقد : فإن
د كلا ، مما يلزم الإضافة إن لم يكن في اللفظ ففى التقدير . وبعد ، فقد يذهب
ذاهب الى التضمنين فى هذه المادة ، وحديثى عن المنهج العربى ، وللتضمنين
بحث آخر .

(المستقيمون يحبون حيوات شريفة)

هكذا يستعمل العصريون جمع الحياة . وما وقفت على جمعها فى القديم .
وقد تكرر ذكر الحياة فى المكناب العزيز فى ضيغة الأفراد ، ولم تجاوزه ألبته .
وذلك أنها مصدر ، وسنة العرب الغالبة تجنب جمع المصدر : إذ كان كاسم الجنس
يقع على القليل والكثير من الاحداث ، تقول : قام محمد ، أى حدث منه قيام ،
وهذا يشمل القومة والقومتين ، وما جاوز ذلك . كما تشاء . قال ابن جنى فى اللع :
المصدر لا يثنى ولا يجمع : من قيل أنه بلفظه بدل على قليلة وكثيره ، فأشبهه
من هذا أسماء الاجناس : كالماء والزيت . فكما لا يثنى ولا يجمع أسماء الاجناس
فكذلك المصدر . فإن اختلفت أنواعه جاز تثنيته وجمعه ، بأن يكون ضرب أشد
من ضرب .

على أنه قد ورد عن العرب جمع المصدر : فمن ذلك قول الأعشى :

قد جربوه فما زادت تجاربهم أباً قدامة إلا المجد والفتنا

فتراه قد جمع التجربة ، ومنه قول الله تعالى : فى سورة الأحزاب : وتظنون
بالله الظنونا . وقد سوغ جمع الظن تعدد متعلقاته : قال أبو حيان ^(٢) فى البحر :
والظنون جمع لما اختلفت متعلقاته ، وإن كان لا ينقاس عند سيبويه جمع المصدر

(١) ج ٢ ص ٦٥

(٢) ج ٧ ص ٢١٦ .

إذا اختلفت متعلقاته ، وينقاس عند غيره . وقد جاء الظنون جمعا في أشعارهم ؛
أنشد أبو عمرو في كتاب الألفان :

إذا الجوزاء أردفت الثريا ظننت بآل فاطمة الظنونا
وقد ذكر في اللسان أن الظن يكون اسما ومصدرا ، وأن الذي جمع في الآية
الاسم . والفرق بين الاسم والمصدر فيما اتحدت صيغته عسير .

وأما ما كان الأمر فتقد يدعو الحال إلى جمع الحياة لتعدد أنواعها ، وهناك
وراء هذا ما يدعو لجمع ، حياة ، وهو أن نجعل علماء وهذا جار الآن ، يستعمل
اسما للأشئ . وهذا يجوز جمعه من غير تكثير من أحد من النحاة .

وقد جرى البحث في صيغتها في الجمع ، فهل يقال : الحيوانات كما جرى به
الاستعمال العصري ؟ أو يقال الحيات بيامين ؟

إن تركيب الحياة هو ، ح ي ، أى إن العين واللام ياء . فالألف في الحياة
مبدلة من الياء ، ومقتضى هذا أن ترد إلى أصلها في الجمع ، فيقال : الحيات ؛
كما يقال : الفتيات والحصيات . ومن هذا منتهى الحاجة إلى النظر في الصيغة
العصرية : ، الحيوانات .

وأقدم بين يدي البحث في هذا الأمر أن العرب قالت : ، الحيوان ، في الحياة
وذى الحياة : فيرى الخليل وسيبويه أن الواو بدل من الياء استكراها لتوالي
اليامين : ويقول - سيبويه في الكتاب (١) : ، وأما قولهم حيوان فإنهم كرهوا أن
تتكون الياء الأولى ساكنة ، ولم يكونوا يلزموها الحركة ههنا والآخرى غير معتلة
من موضعها ، فأبدلوا الواو ليختلف الحرفان : كما أبدلوا في رحوى حيث كرهوا
الياءات ، فصارت الأولى على الأصل ، يريد سيبويه أن ، الحيوان ، لو سكنت
الياء الأولى لنتق بالحرفين على الإدغام : ، حيان ، وكان ذلك عذبا في النطق ،
مستساغا ، ولكن لا يدين لنا بهذا التسكين ؛ فإن الحيوان مصدر قصد به الدلالة
على الحركة والاضطراب كالغليان والنزوان والخفقان ، وقصد أن تظهر الحركة

في اللفظ ، ولما لم يكن سبيل إلى الإدغام كان النطق بالياءين متحركين فيه استثناء ما ، فتجنب العرب هذا بقلب الياء الثانية وأوا قراراً من نوالى مثلين ، كما قيل رحوى وأصله رحي ، ولما جرى الإبدال في الثانية بقيت الأولى على الأصل . وهذا تعليل من سيبويه للشذوذ الذي وقع من العرب في هذه الكلمة . ولم تطب نفس المازني بهذا الشذوذ والتكاف له ، فهو يرى أن الحيوان ليس من تركيب دحى ، بل هو من تركيب دحى و ، قالوا وفي الحيوان أصيلة غير مبدلة . وقد رد عليه مذهبه بأن التركيب دحى و ، لم يأت منه فـعـل ، فيقول في رد هذا : كم من لفظ لم يرد له فعل ؛ ألا ترى أنهم يقولون : فاط الميت ، يفيظ ، فيظاً ، وقالوا أيضاً : فوظا ، ولم يرد فعل لهذا الأخير ، فلم يقولوا : فاط ، يفوظ .

وأقول بعد هذا : إن الاختلاف في د الحيوان ، لم نعهده في د الحياة ، فكأنهم مجمعون على أن لامة ياء . وإذا دعا الأمر إلى تحريك هذه الالف في د الحياة ، فهل لنا أن نأني بالواو قراراً من نوالى المثلين كما قيل في الحيوان ، فيقال : الحيوانات .

هذا ، وقد علمت أن إبدال الياء واوا في الحيوان عند الخليل وسيبويه شاذ لا ينقاس . ولقاتل أن يقول : إن الشذوذ يؤنس بالشذوذ ، فالشذوذ في الحيوان يقرب الشذوذ في الحيوانات . والناظر في اللسان تعترضه هذه العبارة : د الحياة : تقيض الموت : كتبت في المصحف بالواو ، ليعلم أن الواو بعد الياء في حدّ الجمع ، فماذا يفهم القارىء من هذا الكلام ؟ أليس يحق له أن يفهم أن الحياة إذا جمعت كانت الواو فيها بعد الياء أى يقال فيها الحيوانات ، وأن اللغويين لم يضعوا هذا إلا بعد أن وقفوا في كلام العرب على هذا الجمع للحياة .

ونرى في اللسان أيضاً النص الآتي : د وحكى ابن جنى عن قطرب أن أهل اليمن يقولون : الحيوة ، بواو قبلها فتحة ، أنكون نخطمين وجه الحق إذا أخذنا من هذا أن لام الحياة واو عند مؤلام اليمنيين ، وإذا فالجمع عندهم حيوات ، البتة .

وهذا يصحح الحيات في الاستعمال العصري .

وورد في شعر مالك بن الحارث الهذلي قوله :^(١)

إذا خلّفت باطنى سـرّار وبطن هـضاض حيث غدا صباح
تركت صديقنا ، وبلغت أرضاً بها عذر لنفى أو نـجـاح
فلا ينجو نـجـائى ثم حى من الحيات ، ليس له جناح

فترى فيه الحيات ، وظاهر أمرها أنها جمع الحياة ، وكأن الكلام على حذف المضاف ، أى من ذوى الحيات ، والنـجـاء : الإـمـراع فى السير والعدو ، يريد أنه لا يبلغ مبلغه فى العدو حى من ذوى الحياة ليس له جناح ، يستثنى بذلك الطائر ذا الجناح ، فهو لا يزعم أنه يسبقه . ولكن السكرى فى شرحه يقول : من الحيات والحيوان ، أى لا ينجو نـجـائى حى فيه الروح ليس له جناح ، أى ليس يطير . ومن الأحياء : أى لا يعدو عدوى شيء فيه روح يومئذ .

والحيات : جمع الحية أى ليسوا بأموات ، فهو يرى أن الحيات جمع حية وكأنه يريد نفساً حية . فيشمل المذكور . على أن هذا الجمع لم يأت على لفظ واحد ، ولو أتى على لفظه لقليل : حَيَّات . ولا أرى حرجاً فى حمل الحيات ، فى البيت على أن يكون جمعاً للحياة على ما أسلفت . وعلى هذا يصح لنا الحيات .

ومما يؤنس لهذا ما جاء فى القاموس أن جمع الحية للثعبان : حيات وحيوات فتراهم قلبوا ياء حية الثانية فى الجمع واواً حين أرادوا تحريك اليامين ، وهذا يرشدنا إلى أن العرب ترفض فى هذه المسألة اجتماع اليامين متحركين .

ويخرج القارىء من هذا ، وكأننى به قد اقتنع بصحة الجمع :
والحيات ،

(١) أنظر شرح أشعار الهذليين المطبوع فى أوربة فى أول الجزء الأول .

العلاقة بينه سلامه والنصرانية

المؤلف: سالم أحمد الرشيدى

أستاذ فى التاريخ الإسلامى

[سلطان عثمانى يدعو به بابا]

[روما إلى اعتناق النصرانية]

- ٢ -

لم تخف على السلطان الفاتح هذه الحركات والمؤامرات وما يدبره أعداؤه فى الشرق والغرب للقضاء عليه وعلى دولته ، وأدرك ضرورة الإسراع فى العمل قبل أن يطبق عليه أعداؤه من هنا وهناك ، فأن انتهى من فتح بلاد المورة حتى أعد فى ربيع سنة ٨٦٥ هـ (١٤٦١ م) جيشاً جديداً فى القسطنطينية وجيشاً آخر فى بروسه وأسطولا قوياً يتألف من نحو مئتين سفينة ، وزحف لنوه إلى أمانحره ، وأطبق عليها من البر والبحر ، وأخذت هذه المدينة على غرة فلم تجد مناصاً من الاستسلام لم تغن عنها قلاعها وعددها شيئاً ، وواصل الفاتح سيره بعد ذلك إلى سينوب ، ولم يحاول أميرها اسماعيل اسفنديا مدافعة العثمانيين ومقاتلتهم ، فقد استيقظ فى نفسه ضميره الإسلامى وكبر عليه أن يمالأ الأجانب على سلطان مسلم لا يبنى عن الغزو والجهاد فى سبيل الله ، فأثر الاستسلام للفاتح وسلم له بلاده بغير قتال ، وأسرع السلطان الفاتح إلى ديار بكر وأخذ أميرها أوزون حسن على غرة ، فاستحوذ عليه الفرع والذعر ورأى أن لا قبل له بمفرده بمقاتلة السلطان الفاتح ، فبعث إليه أمه ساره خاتون مع بعض كبار رجال دولته يطلب الصلح ، وقبل الفاتح ما عرضه أوزون حسن على أن يكف عن مناصرة أنبراطور طرابزون ، وعن الاغارة على الحدود العثمانية . ولم يسع الانبراطور

داوود بعد أن قضى على حلفائه الاقربين إلا أن يستسلم صاغراً للسلطان الفاتح الذي نفاه وأهله إلى أدرنه .

وهكذا قضى السلطان الفاتح بما أظهر من نفاذ البصيرة وقوة العزيمة وسرعة الحركة ، على تلك المحالفة الكبرى التي دبرت للقضاء عليه وعلى دولته ، وقد كانت هذه المحالفة معقد آمال واسعة عريضة المشتركين فيها لاسيما انبراطور طرابزون واوزون حسن والبابا . أما انبراطور طرابزون رأس هذه المؤامرة فقد كان يؤمل أن يبنى على انقراض الدولة العثمانية دولة بوزنظية عظيمة كذلك التي كانت في عهد جستنيان ؛ واوزون حسن ذلك الأمير التركاني الطموح كان يستهدف - بعد القضاء على الدولة العثمانية - أن يقيم مكانها انبراطورية إسلامية كبرى في الشرق تدخل في حدودها مصر والجزيرة العربية ويتفرد هو بزعامتها ، أما البابا فقد كان يرمى إلى القضاء على هذه الدولة الإسلامية الفتية التي وصلت فتوحاتها إلى شواطئ بحر الادرياتيك وأصبحت تتحفز للوثوب على إيطاليا نفسها ويوطد أقدام الكاثوليكية في هذه البلاد الشاسعة .

هذه هي الآمال ، أو بعض الآمال التي كانت تحتاج رؤوس بعض هؤلاء المشأمرين فأين هم الآن مما قدروا وأملوا ؟

أما الإنبرطور داود فقد سيق أسيراً إلى أدرنه ليعيش فيها مع أهله وذوى قرباه ، وأن كانت نفسه لا تزال تجيش ببعض الآمال وتترقب الفرصة المواتية .

أما أوزون حسن فقد أكره على قبول ذلك الصلح لما كراهها وقبله على مضض ومرارة وأن تظاهر بعكس ذلك ، ولم يلبث بعد ذلك أن اشترك في حلف نصرائي جديد ضد الدولة العثمانية .

أما البابوية فقد كان لها موقف آخر بعد هذه الهزيمة . وكان على كرسي البابوية حينذاك البابا ، باي ، الثاني ، وكان إلى جانب حماسه الديني الشديد رجلاً واسع المعرفة والاطلاع ، واسع الخبرة والتجربة ، قد جاب كثيراً من بلدان أوروبا قبل توليه البابوية ، وشغل كثيراً من المناصب المدنية والدينية ، وقد آلمه فشل الحملات

العلاقة بين الإسلام والنصرانية

١٢٩

الصليبية العديدة التي شذنها البابوية على الدولة العثمانية ، وآله تخاذل ملوك النصارى في كثير من الأحيان واشتغالهم بمصالحهم الخاصة ، ثم بداله ، رأى فريد لم يخطر ببال أحد من البابوات قبله :

لندسمع د باي ، الثاني كثيراً عن تسامح السلطان محمد بن الفاتح في الدين فلم يكره أحداً على اعتناق الإسلام ، وسمع كثيراً عن مجالسه مع بطريرك القسطنطينية ومناظراته معه في شؤون النصرانية ، فلم لا يحاول البابا أن يطرق قلب هذا السلطان ويدعوه بالحسنى إلى اعتناق النصرانية ويرضى في نفس الوقت طموحه إلى المجد والملك بعد أن فشلت جميع وسائل العنف والحرب لبقهره ويكسب بتقصيره — وهو ما كان يتوقعه البابا — قوة عظيمة ، بل أعظم قوة في العالم كانت في ذلك الوقت ؟

ونفذ البابا د باي ، الثاني رأيه فبعث إلى السلطان محمد الفاتح في سنة ١٤٦٣ م . كتاباً طويلاً يدعوه به إلى اعتناق النصرانية قال له فيسئمه الامة وما أعد تبسط سيادتك وسلطانك بين النصارى وتضفي على يتوقعها البابا د باي ، الثاني فقد دون ما حاجة إلى مال ولا سلاح ولا جنس الصليبيين ، وما لبث أن تشتتت جداً يستطيع أن يجعل منك أعظم رجاء ، واغتم البابا لذلك غما شديداً ، ونارت صيناً وشهرة .

د ستألى ما هذا الشيء ؟ إنه لا إلى جميع الكرادلة لتوديعهم وطلب منهم بعيداً للبحث عنه ، إنه في متناول كل : الثاني بين أيديهم في ١٤ أغسطس ١٤٦٤ . نصرانيا خادما للإنجيل . فإن فعما عند هذا الفشل وهذه المأساة المحزنة ، فانها يستطيع أن يفوقك في المجد ولاس النصارى نوعا من القنوط واليأس في نجاح للروم وللشرق وسيصبح ماخذ العثمانيين .

وعدوانا — سيصبح حينئذ —
ويختارونك حكما لم فيما يشجر
كما يقصدون إلى حامهم المشرك
انى قبيل موته ، بعد أن تحقق من فشل الحملة التي
اولى فرجه نداء آخر إلى السلطان محمد الفاتح دعاه

ولا ندرى هل أجاب "

والامر الذي لا شك فيه نام به البابا د باي ، الثاني في سبيل النصرانية .



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى

المج

المؤتمر الاسلامى الأكبر

لفضيلة الأستاذ الدكتور محمد يوسف موسى

هذا الحج الذى تكلمنا عنه فى العدد الماضى من الناحية الفلسفية ، وبينما أنه المؤتمر الذى يجب أن يشهده المسلم مرة واحدة على الأقل فى عمره ، ليتذاكر فيه المسلمون أمورهم العامة ، ويعالجوا بعض ما يحسون به من مشاكل — نقول : هذا الحج بالوضع الحاضر للبلاد الإسلامية ، أ يصلح حقاً أن يكون مؤتمراً عاماً للمسلمين ينعقد كل عام فى البلاد المقدسة ؟ وهنا أجدنى ، بعد أن رأيت هناك ما رأيت وتحقق ما تحققت ، مضطراً للقول بأنه لا يمكن أن يكون المؤتمر المطلوب .

إن لكل بلد من بلاد الأمة الإسلامية مشاكله الخاصة التى قد لا يستطيع حلها وحده لو ترك لنفسه ، فهو فى حاجة — لهذا — للاستعانة بغيره من البلاد الإسلامية ؛ وإن للعالم الإسلامى كله مشاكله العامة التى لا يكفى فى حلها ، كلها أو بعضها ، الأساليب التى يتبعها الرجال الرسميون فى الحكومات أو الجامعة العربية . لهذا وذاك ، لابد من مؤتمر عام يعمل لعلاج هذه المشاكل على نحو آخر غير ما عرفنا حتى اليوم ، ويشارك فيه ضرب آخر من رجالات الإسلام .

إلا أن ذلك يتطلب منا :

١ — أن تنتشر اللغة العربية وتعم جميع العالم الإسلامى .

٢ — أن ينشأ مكتب دائم لهذا المؤتمر فى مكة والمدينة .

٣ — أن تتوفر ، لدى من يقوم على هذا المكتب ، النية الطيبة والإرادة الحازمة لعلاج هذه المشاكل .

١ — إنه من الواضح والبدهي وجوب تعميم اللغة العربية ، حتى تكون اللغة الأولى لكل مسلم من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق . وبدون هذا لا يمكن التفاهم بين المسلمين والتشاور في كل ما ينوبهم من أمور ومشاكل تستحق النظر والعلاج من المسلمين جميعاً . وقد كان مؤملاً إلى أشد الأمل أن أرى بجوارى بالحرم المقدس الأخ المسلم من تركيا أو إيران أو الهند أو الأفغان مثلاً ، وأن يحس كلانا العاطفة الطيبة لأخيه والحاجة للتحدث معه ، ثم لا يستطيع إلى ذلك سبيلاً ، لجهله العربية .

وهناك في أمثال هذه المناسبات ، تذكر مع الأسف المؤلم والحزن العميق أن الأستاذ الشيخ محمد حسن الأعظمي الباكستاني لم ينجح فيما حاوله وبذل فيه كثيراً من جهده ونشاطه الكبيرين ؛ أعني الاستعانة بمصر لتعليم العربية ونشرها بالباكستان ، الدولة التي كان ميلادها أعظم فرح أحسن به العالم الإسلامي في هذه السنوات . لقد اجتمعت لهذا المهم الجليل لجنة عامة كبيرة بدار المجمع اللغوي بالقاهرة ، وكنت أحد الأعضاء الذين دعوا لهذا الاجتماع الذي ضم كثيراً من رجالات مصر المعنيين بالشئون الإسلامية العامة ، وكان في مقدمتهم الأستاذ الجليل الدكتور أحمد أمين بك ، وكنت أنتظر الخير الكثير من هذه اللجنة ، ولكن - وما أمر! لكن - كان هذا الاجتماع الأول والآخر !

وفي مكة التقيت بأحد رجالات سوريا ، هو الوزير المفوض بالباكستان ، وهو يكاد يحترق لما يحسه من تخاذل المسلمين العرب وعدم عنايتهم بتعليم العربية ونشرها بالباكستان . لقد ذكر لي أن الباكستانيين يقولون في مؤتمر عقد في كراتشي هذا العام : لقد سئمنا من مد يدنا سنوات طويلة للمسلمين بشأن نشر اللغة العربية عندنا ، وأن لنا الآن أن نستجيب للجهة الأخرى التي تحاول بكل ما لها من قوة أن تجعلنا نتجه للاقتصار على الأوردية أو الانجليزية !

إذاً ، على الجامعة العربية ، على الحكومات الإسلامية ، على العرب المسلمين

على هؤلاء جميعاً واجب مفروض ، هو نشر اللغة العربية في البلاد الإسلامية بكل وسيلة ، وأن يكون ذلك عاجلاً ، وإلا كان من المستحيل أن يتفاهم المسلمون في أمورهم ، وأن يكون الحج مؤتمراً عاماً لهم يعالج شئونهم ومشاكلهم العامة .

٢ — ثم يجب أن يحدد كل عام المشاكل المهمة أو العاجلة التي تتطلب الحل ، وأن يقرر كل قادر من رجالات الإسلام بنصيبه في علاجها ووضع حلول لها ؛ وهذا يستلزم طبعاً أن يكون للمؤتمر مكتب دائم بمكة والمدينة ، وبخاصة بالاولى ، لطول إقامة المسلمين بها ، ولأن من المسلمين من يرى أحياناً أن ينتصر على الحج لهذا السبب أو ذاك .

ولعل من أول هذه المشاكل استحقاقاً للبحث والملاج ، إن أمكن أن يقوم هذا المؤتمر ، مشكلة كيف يتم الحج لبيت الله الحرام بمكة المكرمة وزيارة الحرم النبوي الشريف بالمدينة المنورة بأقل ما يمكن من المتاعب والمشاق والتكاليف المالية ؛ فقد والله عانينا من كل هذا هناك ما جعل البعض منا يفتون بأن الحج أصبح غير واجب في هذه الأيام وفي هذه الظروف على كثير جداً من المسلمين . هذه المشكلة التي تتطلب البحث العميق والحل السريع ، نتناول كل ما يتصل بالحج من جميع النواحي : وسائل السفر ؛ ورسم الإذن بدخول الحجاز لأداء هذه الفريضة المقدسة ، هذا الرمم الفاحش غير المعقول الذي فرض على الحجاج أدائه ؛ أماكن الإقامة بمكة والمدينة ؛ وسائل الانتقال وبخاصة من جدة للمدينة ، هذا الطريق الذي يساهم - بما فيه من عرابت لا تصلح لقل الأمانى - في استشهاد كثير من الحجاج والزوار ؛ ثم المرافق الصحية التي لا تعرف تلك البلاد لها وجوداً ، أو على الأقل لا نعرف لها وجوداً على وجه يرضى - في أدنى الدرجات - الكرامة الإنسانية .

٣ — وأخيراً ، يجب أن تتوفر لدى حكومات الإسلام ورجالات العرب والمسلمين ، الذين يقوم هذا المكتب والمؤتمر عليهم ، النية الطيبة في الإصلاح والإرادة الصادقة لنجاح هذا المؤتمر في معالجة مشاكل العالم الإسلامى .

بدون هذا يكون الحج فريضة تسقط عن المسلم بأدائها ، وليكن لا نكون

قد اتخذناه وسيلة لغايات من أرقى الغايات ، وأعظمها أثراً في حياة الإسلام والمسلمين .

وقد يكون من الخير أن أشير هنا إلى أن الازهريين أنفسهم الذين يحجون كل عام لا يجدون من القائمين على الأمر هناك ما يجب أن يجدوه من تيسير أداء رسالتهم الدينية التي يجب عليهم أداؤها في هذه البقاع المقدسة وفي تلك المناسبة الجليلة . بل إن وسائل التعرف بينهم وبين أمثالهم ممن يعنون بالتوجيه الديني في موسم الحج تكاد تكون معدومة ، وفي رأي أنه يساعد في علاج هذه الناحية أن يكون هناك اتفاق سابق قبل موسم الحج بين هذه البعثات الدينية ، وبين الرجال الدينين المشرفين على الحرمين الشريفين بمكة والمدينة ، على نواحي التوجيه ، ووسائله .

هذا ، والله يقول الحق ، وهو يهدي السبيل .



مركز تحقيق كميوتير علوم إسلامي

عظمة

كان أهل المدينة قد ثاروا على المنصور الخليفة العباسي تحت قيادة محمد بن هبة الله بن الحسن من أهل البيت النبوي ، فقاتلهم المنصور ، وقبض على قائدهم فقتله ، ثم أحضر جعفر بن محمد بن علي بن الحسين فقال : « قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وقد رأيت أن أبعث إليهم من ينور عيونهم ، ويحمر نخلهم .

فقال له جعفر : يا أمير المؤمنين : إن سليمان أعطى فشكر ، وإن أيوب ابتلى فصبر ، وإن يوسف قدر ففخر ، فاقنذ بأيمهم شئت ، وقد جعلك الله من فضل الذين يعفون ويصفحون .

فقال له المنصور : « إن أحدا لا يعلمنا الحلم ، ولا يعرفنا العلم ، وإنما قلت هممت ولم ترفني فعلت ؛ وإنك لتعلم أن قدرتي عليهم تمنعني من الاساءة إليهم ، .

نقد الدين السبكي

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الله مصطفى المراغي

مدير قسم المساجد بوزارة الأوقاف

التاريخ الإسلامي في العلوم والفنون زاهر ، عظيم الفوائد ، جليل العوائد ، ومن أجل الظواهر التي نلفت إليها وننبه الباحثين عليها ؛ تخصص بعض الأسر من المسلمين في الاشتغال بالعلم والعناية به والنبوغ فيه ؛ تلك ظاهرة خليقة بالتسجيل والتكريم لما تدل عليه من شوق أصيل عند المسلمين إلى العلم وإقبالهم عليه وخدمتهم له ، حتى بلغوا فيه القدر المعلى والمقام الكريم ، وحسبني أن أشير هنا إلى أن علوم الدين بفروعها المختلفة من أصول وحديث وتفسير ، قد عرفت ثلاثة من أسرة واحدة ، كلهم يسمى ابن تيمية ، وهم جد وابنه وحفيده ، قد تتابعوا في نسق ، ومضوا على سبيل واحدة من التحصيل والفضل والتبريز .

فأولهم محمد الدين بن تيمية ، وهو عبد السلام بن عبد الله ، المولود ببحران سنة ٥٩٠ هـ ، وابنه شهاب الدين بن تيمية وهو عبدة الحلیم بن عبد السلام المولود ببحران سنة ٦٢٧ هـ ، وحفيده تقي الدين بن تيمية وهو أحمد بن عبد الحلیم المولود ببحران ٦٦١ هـ ، ويحدر بالدارسين لأثارهم المطلعين على أبحاثهم ، أن يلاحظوا ذلك كي يدركوا ما بين آرائهم من فروق ، وما لكل منهم من اتجاه . وكذلك عرف الاسلام بالاندلس مثل ذلك من تعدد العلماء من أسرة واحدة ، فنحن نعرف ابن رشد الجدد وهو فقيه مالكي مقتدر مؤلف ، كثيرا ما يصادف القاري في كتب المالكية الإشارة إلى كتابه المسمى بمقدمات ابن رشد ، ثم جاء بعده ابن رشد الفقيه المجتهد والفيلسوف النابغة مفخرة المسلمين وأبو الفيلسوف الحديثة باعتراف الأوربيين ، وهو معروف عند المؤرخين بابن رشد الحفيد تميزا له عن جده المذكور آنفا .

ومن تتبع هذه الظاهرة الكريمة استطاع أن يحصى من أمثالها البارزة كثيرا .

ولكنني معني هنا بأن أتحدث عن أسرة السبكيين المصرية الأزهرية فإنني أرى لهم من الفضل ما يستوجب نشر ذكركم وتفصيل أخبارهم وسيقتضي ذلك بضع مقالات .
 أما إنهم قد دارسوا العلم وخدموا الأزهر وألفوا في علوم الدين واللغة ،
 فذلك ما تشهد به مؤلفاتهم الجليلة السكثيرة التي أمضى الأزهر قرونا وهو دارس
 لها ، مهتم بها ، يرجع إليها كل أزهرى محقق ، وكل عالم باحث في الفنون التي ألفت
 فيها ، واعتبرت بحق مقياس البراعة وآية التحصيل لدارسها . والنافقون من هذه
 الأسرة أربعة علماء أجلاء سألهم لك تباعا مبتدئا اليوم بأولهم تاريخنا الإمام
 تقي الدين السبكي والآخرين أبناءه وقريب له .

أما تقي الدين فهو : علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن يوسف بن موسى السبكي
 المكنى بأبي الحسن الملقب بتقي الدين الفقيه الشافعي المفسر الحافظ الأصولي النحوي
 اللغوي المقرئ البياني الجليل ، ولد سنة ٦٨٣ هجرية بسبك إحدى قرى مديرية المنوفية
 بالقطر المصري ، وقد أظفره بما سلف من أوصاف عديدة بحمدته بجلها مترجموه نشاطه
 العجيب في الدراسة ، وطموحه إلى مختلف العلوم وشعب المعرفة ، وملازمته لشيوخ
 عصره ، ورحلته إلى داني البلاد وقاصيها في سبيل التلقي والتحصيل ، فقد تاق علم
 القراءات على التقي بن الصائغ ، وأخذ التفسير عن العالم الوافي ، وتفقه على ابن الرفعة ،
 وحذق الأصول على العلامة الباجي ، وثقف في النحو على أبي حيان ، وسمع الحديث
 على الشرف الدمياطي ، ثم شاقه أن يضم إلى ثقافته الواسعة علم التصوف فرحل
 إلى الإسكندرية وتلقاه على تاج الدين بن عطاء الله السكندري .

ومن العلماء الذين عرفهم ودارسهم ، أبو الحسن يحيى بن عبد العزيز الصواف :
 وعبد الرحمن بن مخلوف بن جماعة ، ويحيى بن محمد بن عبد السلام . ولم يزل به
 تحصيل العلم وابتغائه حتى كاتب علماء بغداد وكاتبوه وقدروا علمه ، وأجاز له
 منهم الرشيد بن أبي القاسم وإسماعيل بن الطيال ، وكذلك احتل وعشاء السفر
 ومشقته البالغة في تلك الأيام في سبيل العلم والتحقيق به ، فرحل إلى الشام وسمع
 من ابن الموازين ، وهناك ذاعت شهرته وعلا بين العلماء قدره ، فتولى قضاء الشام
 وكان قاضياً عادلاً عفيفاً نزيهاً لا يخشى في الله لومة لائم ، وتولى مشيخة دار الحديث
 الشامية البرانية ، ثم هوى فؤاده إلى بيت الله الحرام وزيارة الروضة النبوية ، على

ساكنها أفضل الصلاة والسلام، ولقي في الحجاز الإمام ابن مشرف وسمع منه، ثم عاد إلى القاهرة وقد عرف بالنبحر في العلوم واشتهر في الفقه بالاستنباطات الجليلة، والدقائق اللطيفة، والقواعد المحررة التي لم يسبقه إليها أحد فأقبل عليه الدارسون والمحصلون يقتبسون من علمه ويستبصرون بتحقيقه ومن أشهرهم: الحافظ أبو الحجاج المزي وأبو عبد الله الذهبي. ولقد كان رحمه الله، على علو قدره وعظيم تمكنه، منصفاً في البحث رجاءاً إلى الحق، فلا جرم أن جمعت هذه الصفات القلوب حوله، وبثت في القلوب حبه وحمات الناس على اتباعه وتوقيره، ولم تمنعه كثرة أسفاره واشتغاله بالتدريس لنلامذته من التأليف، بل قد بلغت مؤلفاته مبلغاً عجيباً في كثرتها ودقتها وشمولها للمباحث التي يتناولها ويحررها.

فأصحاب التراجم يعدون من مؤلفاته نحو مائة وخمسين كتاباً، منها: تفسير القرآن، وشرح المنهاج في الفقه، ونيل العلا في العطف بلا، وشفاء السقام في زيارة خير الأنام رده على ابن تيمية (ط)، والعلم المذخور في إثبات الشهور (ط)، والاقتصاص في الفرق بين الحصر والاختصاص. ومن مؤلفاته القيمة التي لها شأن في الأزهر جليل، ويتنافس في دراستها أهل البراعة والتحصيل، شرح منهاج البضاوى في الأصول، فقد ابتدأ شيخنا تقي الدين هذا الشرح، ومضى فيه إلى قول البضاوى رحمه الله، الواجب إن تناول كل واحد فهو فرض عين، ثم أتم شرحه إلى آخر الكتاب ابنه العالم الجليل، تاج الدين السبكي صاحب جمع الجوامع. والدارسون لهذين الكتابين من الأزهريين، يشهدون على علم ويقين، بما المترجم في علم الأصول من تمكن وإحاطة، بجملاته فارس ميدانه، وواحد أقرانه. فكتاب جمع الجوامع - وإن كان من تأليف ابنه تاج الدين - يحتوي على أبحاث جليلة، وتحقيقات فريدة لآبيه، نجعله يشارك في فضله ويساهم في مجده، وسنفصل القول عن هذا الكتاب حين نترجم لمؤلفه، ونتوج هذه الترجمة بشهادة هؤلاء العلماء الأعلام للإمام السبكي بالفضل في علمه ومقدرته ودينه وسيرته. فالسيوطي عده من المجتهدين، وقال الصلاح الصفدى: ما جاء بعد الغزالي مثله، وقال السيد محمد بدر الدين أبو فراس النعساني: هو عندى مثل سفيان الثوري. وليس لي بعد ذلك إلا أن أقول: إنما يعرف الفضل من الناس ذوهه. رحمهم الله أجمعين، ونفع بسيرتهم وآثارهم المسلمين.

بشيرة النبي

المفسر الأستاذ الشيخ إبراهيم علي أبو الخشب

لما مال المسلمون من المشركين بيد مناهم ، وانتصروا عليهم ذلك الانتصار الرائع الذي حول مجرى التاريخ ، ولقت أذن الدنيا ، وأردف سمع الدهر ، حفز الكفار جهودهم ، وشحذوا عزائمهم ، واستنصوا همهم ، وجمعوا جمعهم ، للبارزة من جديد ، فخرجوا بأحاديثهم ليقاوا محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، فقال المتشفي الحانق ، المتقيظ الغاضب ، راجين أن يضعوا بذلك حدا لما بينهم وبينه ، حتى لا يرتفع صوته ، ولا ندوى كلمته ، أو تسرى إلى النفوس دعوته ، وخرج معهم نساؤهم ، ليأمنن فيهم الثورة ، ويؤججن نيران الحماسة ، وكان في النساء هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بن حرب المصماة آكلة الكبد ، وكان في الرجال جبير ابن مطعم ، وكلاهما مورتور يتمنى أن تنأح له الفرصة التي يأخذ فيها بوتره ، ويقتص لنفسه ، وكان لجبير عبد حبشي يدعى وحشى ، يملأ الجسم ، مفرط الشجاعة ، موفور القوة ، يخيف بشكله وبأسه ، طلب إليه أن يخرج لقتال المسلمين ، ومنأه أن يعتقه إذا هو أردى الحزرة بن عبد المطلب ، وكانت هند قبل ذلك عرضت عليه مالا كثيرا ليقول الحزرة . ولم يكن النأمر على قتل هذا الرجل تبريدا للغة ، وإرواء لظما ، وإنما كان كذلك لمساكنة الحزرة في المسلمين من البسالة والإقدام ، والعزم والقوة . وقد كان الرسول رضوان الله عليه يعتز بالحزرة ويحبه ، ويقدره ويحترمه ، لا لأنه عمه ، ولا لأنه منحاز إلى جانبه ، ولكن لأنه مع ذلك ، بغنى عن جيش محارب ، وجماعة مقاتلة ، والقضاء عليه هدم لركن متين ، وحصن حصين . وإذا كان الحزرة توافرت له معاني الشجاعة والإقدام ، والمغامرة والتضحية ، والعزم والمضاء ، والهمة وعدم المبالاة ، فإنه لم يعد إلى جانب ذلك الحذر والحيلة ، واليقظة والانتباه ، والرأى والتدبير ، والفكر والنظر ، والاتعاظ بالحوادث ، إلا أن الحين الذي يسبق جهد الحريص ، كان يخبئه له

المقدار في ضربة صوبها له وحشى . نعيم الوجوم ، وسادت السكينة ، من عظم ما أصاب المسلمين من ذهول ، واعتراهم من هموم ، وربما كان هذا القتال يعلم مبلغ ما أصاب النبي نفسه صلوات الله عليه من جرم هذه الفاجعة ، ولذلك فإنه بعد أن عتق وأطلق سيده صراحة أسلم وحسن إسلامه ، واطمأن خاطره لتوفيق الله إياه ، واتجاهه الى سبيل المؤمنين ، لسكن شيئا واحدا لا يزال يحزن في قلبه ، ويعتقد أن الله لا يغفره له مهما صام وصلى ، وافنى جهده في الطاعة ، وعمره في العبادة ، ذلك أنه أهاج حفيظة الرسول بهذا القتل ، ولهذا لم يجرؤ على أن يلاقيه وجها لوجه ، أو يضع يده في يده . وما زال هكذا يفر ويبالغ في الفرار ، ويهرب ويعن في الحرب ، حتى قيل للنبي ما هو ذا . فقال له أنت ؟ قال : نعم أنا يا رسول الله وأرجو أن يكون الإسلام عني على ما قبله ، فقال حول وجهك عني يا وحشى ، فأبى لا أطيق أن أرى بعيني رجلا قتل الحمزة بن عبد المطلب .

ويروى الرواية أن وحشيا قال ما زالت هذه تقلق مضجعى ، وتؤرق جفنى ، وتستعيب خاطرى ، وأنا أرجو أن يوفقني الله لعمل أرضى به رسوله ، وأكفر ما عسى أن أكون قد اقترفته ، فلم أجد إلا أن أقتل مسيلة الكذاب حينما حمل راية الفتنة ، وشق عصا الطاعة ، وادعى النبوة في خلافة أبي بكر الصديق هداانا الله بهديه . . ولعل كثيرا ممن يبرون بهذه القصة أن يقولوا ما ذنب رجل لا ذنب له . . ولعلمهم يذهبون إلى أبعد من هذا كله ، فيقولون ما كان من اللاتق أن يقف النبي هذا الموقف من مسلم راسخ القدم ، قوى العقيدة ، صحيح الإيمان . وهذه الدعوى إنما يدعيها من يجرد الرسل من بشرتهم ، وهلماء النفس يقولون إن الالم الذى تفعله الذكريات الممضئة ، والصور البغيضة ، والمناظر المكروهة ، قد يقتل صاحبه بغير سكين ، ولا سيماء إذا كان من هؤلاء المرضى بما يسمى ضغط الدم ، والعياذ بالله ، فإنه يعتريه الشلل ، ثم يقضى لوقته . والمتنبى كان أدرك الناس بهذه الظاهرة البشرية على الرغم من أنه لم يدرس الطب ، ولم يزال الفلسفة ، لأنه يقول :

واحتمال الاذى ورؤية جانبيه — غذاء تضوى به الاجسام !!

والحواس تتغذى كما يتغذى الجسد ، ويعتريها الضنى والضف ، والنحافة والهازل ، والتهدم والمرض ، حين تتناول طعاما لا تستسيغه ولا تحبه ... ويقول الأدباء فيما يزعمونه من هذا القبيل : اكملت عيني لمراك ، وطاب قلبي بقلبياك .

والحديث في هذا يطول ويستترسل .. ونحن نود أن يفهم المؤمنون برسالة النبي صلى الله عليه وسلم أن القرآن الكريم ينادى بأنه بشر يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ، ينام ويصحو ، ويكره ويحب ، ويغضب ويرضى .. وكان مثار العجب في قريش أن تكون هذه المهمة الشاقة ، والمسئولية العظمى ، في عنق إنسان ، قد تستهويه الشهوات ، وتملكه النزوات ، وتصرفه الأهواء ، وتوجته المآرب ، وهم لم يالفوا رجلاً نسمو به روحه إلى هذا الأفق الطاهر وتحلق ذاته في تلك الأجواء البريئة ، بحيث لا يظلم ولا يطغى ، فافرحوا أن يكون من الملائكة المقربين ، ورد الله جل جلاله عليهم بقوله : ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً ، لانهم لا يأتسون به ، ولا يفهمون منه ، ولا يتلقون عنه ، إلا إذا تحول إلى جنسهم ، وعاد إلى نوعهم .. وكان هو يُصرِّح بهذا إذا احتكم إليه خصمان ، وحاول أحدهما بسحر بيانه ، وطلاقة لسانه ، وعدوبة منطقته ، أن يصور الباطل على شكل الحق ، فينهام عن الالتجاء إلى هذا الأسلوب في التقاضى خوفاً من أن يلتبس عليه الامر ، وتشبهه المعالم ، فإذا هو يحكم بالشئ لغير صاحبه معلناً لهم أنه : بشر يخطئ ويصيب ، ... وإذا كان سبحانه بعث به إلى العرب أمياً لا يقرأ ولا يكتب ليتأتى التحدثى ، ويتبين الإعجاز ، فهو كذلك لم يجرده من خصائص البشر ليرينا أن النبوة لا تكتسب بالتحصيل ، ولا تحبى بالاجتهاد ، بل هى سر إلهى يضعه الله فيمن يختاره من عباده الصالحين ؟

رضى الناس

نفسه الأستاذ الشيخ على حسن العمري

مبعوث الأزهر في السودان

من الامثال السائرة على السنة الخاصة والعامة (رضا الناس غاية لا تدرك) . وهذا المثل من أصدق الكلم ، وأحكم الحكم التي تدبر عن واقع محسوس ، ومشاهد ملموس ، فقد خلق الناس مختلفين في الطباع والغرائز والأخلاق ، ولا يزالون مختلفين ، وموازنهم التي يزنون بها الرجال والأعمال مختلفة أشد الاختلاف ، ومقاييسهم مضطربة في أكثر الاحايين ، فما ظفر برضاهم خالق ولا مخلوق .

اختلفوا في ذات الاله ، واختلفوا في الأنبياء ، فقال المسلمون عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه رسول الله وخاتم النبيين ، وقال المشركون إنه ساحر كذاب ، وقالت النصارى : المسيح بن الله ، وقالت اليهود : أنه ولد من غير أب شرعى ، وقال المسلمون — كما نطق كتابهم الكريم — ما المسيح بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام . واختلفوا في الخلفاء من بعد الرسل فقد أحب عليا قوم حتى كفروا بحبه ، وأبغضه آخرون حتى كفروا ببعضه ، وسمى جمهور المسلمين أبا بكر وعمر شيخي المسلمين وكفروا هما بعض الناس بل كفروا من يتول إن لهما نصيبا في الإسلام ، واختلفوا في العلماء والشعراء ، والولاة والقضاة ، وفي شأن كل نابه حتى قال بعض الكتاب : إن العظيم من الرجال من اختلف فيه الناس فرفعه قهوم إلى السماء ونزل به آخرون إلى الحضيض ، وذكر العالم الكبير أبو عثمان الجاحظ أنه كان يقال : يستدل على نباهة الرجل من الماضين بتيابن الناس فيه ، ثم قال : ألا ترى عليا

رضى الله عنه قال يهلك في فتيان : محب مفرط ، وهذه صفة أئبه الناس ، وأبعدهم غاية في مراتب الدين وثرف الدنيا .

بل إن التقدير عند الشخص الواحد يختلف في آن عنه في آخر ، فهو يزن رجلاً فيرفعه ثم يعود بعدد طويل أو قصير من الزمن فيخفضه ، وما حدث التاريخ ولا سمعنا أن إنساناً اتفق عليه الناس . وكيف وفي الناس قوم مولعون بالنقد ، مفرمون بتقص ذوى الفضل والمواهب الخالدة ؟ فكلموا رجلاً نابهاً تلمسوا له المثالب والعيوب ، فإن قاتل قالوا متهور وإن قعد قالوا سجين ، وإن أنفق قالوا مسرف ، وإن أمسك قالوا بخيل . . . وهكذا

ويروون في القصص الشعبي أن رجلاً أراد أن يرى ابنه طبائع الناس ، فأخذ دابة وركبها وأردف ابنه خلفه ، ومرا بجماعة من الناس فقالوا : ما أقسى قلبه ! يركبان معاً على هذا الحيوان المسكين . فقال الرجل : يا بني تتعاقب ، فركب الرجل وسار ابنه خلفه ، فلما مرا بجماعة أخرى قالوا : ما أضعف تفكير هذا الرجل ، يشفق على الحيوان ، ولا يشفق على ابنه ، وهو فلذة كبده ! فترك الرجل وأركب ابنه فقال من لقيها من الناس : ما أسوأ أدب هذا الولد ، يركب ويترك أباه المسن الضعيف يمشى خلفه ؟ فقال الرجل : لم يبق يا بني إلا أن نسير معاً ، ونترك الدابة خفيفة الظهر ، حتى نسلم من انتقاد الناس ، ولكنهما ما سلما ، فما هو إلا أن مرا بجماعة من الناس حتى قالوا : ما أحقرهما ، يمشيان ، ومعهما دابة موثقة الخلق ، قوية البنيان . فلم خلفت ؟

وهنا أخذ الرجل يعلم ابنه ويضع يده على موضع العبرة من حيلته وتدبيره فقال : يا بني : ركبنا معاً فرماني الناس بقوة القلب ، وركبت أنا فرموني بضعف التفكير ، وركبت أنت فرموك بسوء الأدب ، وسرنا معاً فرمونا بالحق . فما أحد من ألسن الناس يسلم !

وأنت مع الناس شديد الشبه بهذا الشاعر مع صاحبه : شكاً فلامته على شكواه ، وكتم حبه فأنكرت عليه صبره ، ودناً فأبعدته ، وتباعد فجذعت من بعده فخار في أمره وجعل يصيح :

شكوت ففالت كل هذا أبرما بحبي أراج الله قلبك من حبي
فلما كتمت الحب قالت لشديما صبرت . وما هذا بفعل شجي القلب
وأدنو فتقصيني فأبعد طالبا رضاها فتعتد التباعد من ذنبي
فشكواي تؤذيها وصبري يسوؤها وتجزع من بعدى وتنفر من قربى
ويا قوم هل من حيلة تعرفونها أجيبوا بها واستوجبوا الشكر من ربى

ونحن نقول : غفر الله لك أيها الشاعر ، وعفا عن أمثالك ، فما نعلم ،
ولا كان الذين يعاصرونك يعلمون لك حيلة ، فمكذأ شأن القوافي ، ومكذأ
شأن الناس ، وأي كذا خلقت ، كما يقول النحويون . والإنسان مهما عامل الناس
بالحسنى ، وأخذهم باللين واللطف ، فلا بد أن يجد فيهم من يلتوى عليه .

عذرى من الإنسان ما إن جفوته صفالى ولا إن كنت طوع يديه
وإنى لمحتاج إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

ولذلك قال المأمون حين سمع هذا البيت . . . وإنى لمحتاج . الخ . أن
من يأخذ نصف ملكي ويعطينى هذا الصاحب ، ثم جاء البديع الهمداني في القرن
الرابع فكتب إلى بعض معارفه يقول : فأما الإنصاف في الصداقة فهو ضالتي
عند الأصدقاء ولا أقول :

وإنى لمشتاق إلى ظل صاحب يرق ويصفو إن كدرت عليه

فإن قائل هذا البيت قاله والزمان زمان ، والإخوان إخوان ، وحسن
العشرة سلطان ، ولكنى أقول وإنى لمشتاق إلى ظل :

رجل يوازنك المودة جاهداً يعطى ويأخذ منك بالميزان
فإذا رأى رجحان حبة خردل مالته مودته مع الرجحان

وقد كنا نقترح الفضل ، فأصبحنا نقترح العدل ، وإلى الله المشتكى لا منه .

وسئل شريح القاضي : كيف أصبحت ؟ فقال : أصبحت ونصف الناس
على غضبان . هذا شأن شريح ، وهو بعد قاض عادل نزيه ، لا يميل به غرض
النفس عن قصد السبيل ، ولا يعدل به هوى الرأى عن جادة الصواب ،

ومع هذا فمثل شريح من كل رجل يحكم بالعدل ، ولا يقول إلا الحق يجب أن يغتبط بهذه الحال أشد الاغتياب ، فحسب امرئ حر الرأي ، قويم الدين ، نظيف السلوك أن يرضى عنه نصف من يعاشرهم من الناس ، وقد يما قال خطيب العرب وحكيمها أكتثم بن صيفي : أن قول الحق لم يترك لي صديقا .

حتى بعد أن ينتقل الإنسان عن هذه الدنيا لا يعدم من يستنزل عليه الرحمت ومن يصب عليه اللعنات ، وقد يسلّم روحه بين ابتسامة الشامت فيه ، ودموع الباكي عليه ، والشاعر يقول :

المرء يأمل أن يعيش وطول عيش قد يضره
تفنى بشاشته ويبقى بعد حلو العيش مره
وتسوءه الأيام حتى ما يرى شيئا يسره
كم شامت بي إن هلك وقائم لـلله دره

والأديب الأريب ينبغي له أن يطلب رضا الناس فإن رضاهم يقيه من ضرور كثيرة ، وليس أصعب من عداوات الرجال ، ولكن لا ينبغي أن يطلب رضاهم بما يسخط الله عز وجل فقد قالت السيدة عائشة رضى الله عنها : من أرضى الله يخطئ الناس كلفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن أرضى الناس يخطئ الله وكله الله الى الناس ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته .

فاذا لم يكن بد فليؤثر الإنسان رضا الله مهما كلفه ذلك من عناء ومشقة ، ولكن كما قالت السيدة رابعة العدوية رضى الله عنها ، وهى تناجى ربها :

فليت الذى بينى وبينك عامر وبينى والعالمين خراب

وبعد ، فرضا الناس غاية لا تدرك ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ؟

على هامش المولد والهجرة

مِيلَادُ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمود صهيبة

المدرس بكلية اللغة العربية

سلام عليك يا رسول الله مولوداً ومبعوثاً ، ومقيماً ومهاجراً ، ومبشراً
ومنذراً ، وحيّاً وميتاً ، وروحاً في عليين . سلام عليك ما تعاقبت السنين ،
ونوات الأيام تردد دعوتك ، وتنشر صفحتك ، وتظهر مجدك ، وتلو على الوجود
آياتك البينات ، وعظائمك البالغات ، فلقد كنت سلاماً على الوجود منذ تعلقت
الإرادة بوجودك ، والمشيمة بخلقك ، فأنت حق من الحق ، ورحمة من الرحمة ،
ونور من النور ، ولدت فكنت خير مولود عرفته الأرض نقاءً وطهرًا ، وصفاء
وكرمًا ، ونسبًا وحسبًا ، ونشأت فكنت خير ناشئ خلقاً وخلقاً ، وعز
ومجدًا ، وأمانة وصدقًا ، وبعثت فكنت خير مبعوث لخير أمة أخرجت للناس ،
تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر .

قدمتك العناية للناس رحمة بهم ، ومنقذاً لهم لما ضرب الفساد بجراحه في
الأرض ، وشاع الضلال وذاع ، وتلاشت الحضارات الصحيحة ، والمدنيات
السليمة ، وأنهك الأمم الراقية المبالغة في الترف والامعان في المجون ، وأصبحت
الأرض تنتظر الفجدة من السماء ليكشف ما بها من ضر ، وما أصابها من انحلال .
ومهمات لامة انفصمت عراها ، وفقدت أخلاقها ، ونفدت طاقتها أن تقوم ببناء
أو تعمیر ، أو بهدى أو إصلاح . لهذا لم تتجه الدعوة للإصلاح في الأرض إلى
أصحاب الحضارات المشوّهة ، والمدنيات الممسوخة ، وإنما ولت وجهها شطر الأمة
الامية التي أكسبتها العزلة مناهة ، حنظلها من أدوار المستهترين ، وامراض
المسرفين ، فبقيت طاقتها البشرية صحيحة سليمة ، ونوفر لديها كل ما يصلح لتكوين
أمة حية تقوم الوجود ، وتنشر السلام . ذلك أن الاميين عاشوا في جزيرتهم

هيشة شغل وجدب ، لا يملون شيئاً من مفاتن الدنيا ، ومباهج الحياة ، وبهرج الحضارة ، إلا بقدر لا يفت من سواعدهم الفاتحة ، وطبائعهم السليمة ، فهم أهل جاهلية بما عند متآخيمهم — الفرس والروم — من خلاعة طغت على المعارف والحكمة ، وظلم جعل من الناس عجماوات مسخرة لتشبع بطوناً نهمة ، وسيادة كاذبة ، وألوهية ضالة . فالعرب قد لازمهم الفطرة البريئة ، والبساطة المخففة من أنقال العيش ، وأعباء الحياة ، فصحت أجسامهم ، وصحت معها عقولهم ، ولم يكن لإسرافهم في الجهل والضلال إلا على وزان إسرافهم في لذائذ العيش ومتع الحياة ، وأنّى للفقر والإفلال أن يتسعا للأسراف أو يهيموا للفساد ، فكل ما عندهم تراحم على الكسرة ، وتناكب على القطرة ، وما وراء ذلك فهو على هامش حياتهم ، وليس من صميم وجودهم . لذلك كانت الأمة العربية أولى أمم الأرض بحمل الدعوة ونشرها ، وإقامة الحججة وإنقاذ البشرية من ضلالها .

وأمن المترفون في الفسوق وأسرفوا في استيفاء الشهوات واللذائذ ، وانصرفوا عن كل خير في الأرض . فأفسدوا ولم يصلحوا وعطلوا ولم ينشئوا واختفت فيهم الفضيلة ، وتبجعت منهم الرذيلة ، وتطايير الشر من مواقدهم موافد الضلال والفجور ، وحملت الرياح الهوجاء إلى مواضع الطهر والقداسة . ومرأطن السذاجة والفطر السليمة ، فتغيرت النفوس الطاهرة ، وتغلب الهوى ، وتحفد الشيطان ، واتخذ العرب من أول بيت وضع للناس للتوحيد والتنزيه ، والمثوبة والأمن ، مكاناً للشركاء والأمداد ، ومبأة للضلال ، ومرتعاً للفساد .

عند ذلك تجلت رحمة الله بخلقهم ، واختار خاتم رسله لخاتم دعوته ، ليجبر ما انصدع وينظم ما انفط ، ويمسح ما علق بالفطر ، حتى تعود سيرتها الأولى ليرد بهم الناس إلى الحق البين ، والطريق المستقيم ، ولكن الضلال قد صادف قلوباً خالية فتمكن منها ، ووجد الشيطان نفوساً بريئة ففت فيها الشر ، فوجد الرسول الكريم مشقة وجهداً في تخليص العرب من الأدوية التي أصابتها والأمراض التي نزلت بها فأسر بالدعوة إسراراً نحواً من ثلاث سنين ، ثم دعا جماراً نحواً من عشرين لما قبل ، اصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ، وهيء الرسول تهيمه خاصة ، فكان مثال النبل والخير ، عرف بين آله وقومه بالطهارة والنزاهة ، والصدق والأمانة على الرغم مما كان عليه من قلة في المال ، ونقص في الولد ، لا ينتطح في ذلك عنزان

ولا يختلف فيه اثنان ، ولكن الشر قد تأصل في نفوس القوم ، فصمت الأذان عن سماع الحق ، وأقفلت القلوب عن قبول الهدى وعميت الأبصار عن رؤية آيات الله ، وتنكر للدعوة الإلهية القريب والبعيد والمحب والمبغض إلا من عصم الله وقليل منهم .

وسلك الرسول الكريم في تبليغ خبر ربه طريقاً منطقياً ، فتحدث إلى الأصدقاء والإخوان في خلوات وفترات معلناً أمره وموضحاً خبره ، وتحدث إلى الناس في المجالس والأسواق عن الفضيلة والأخلاق ، واخذ يلزم من طرف خفي ما عليه القوم من بعد عن الحق ومجافاة للمعقول والمقبول ، وجوهر الدعوة سر في نفسه لا يجاهر به حتى تنهى النفوس لقبوله .

وبدأ بإنذار العشيرة والأقربين ، وهم أولى باتباعه والاستجابة له ، إبقاء على وشيجة القرى ووفاء بحق الرحم فإن الرحم ، يوصل من وصله ، وأى صلة تدانى ديناً يهدى إلى الحق ، وإيماناً يورث الجنة ويبعد من النار ، ثم أعلن إلى قومه فدعاهم ليلاً ونهاراً فلم يزدحم دعاؤه إلا فراراً ، فألح وألحف حرصاً على قومه أن يتعرضوا لسخط ربه ، فيجعل عليهم غضبه أو ينزل عليهم عذابه ، وهو بهم رؤوف رحيم .

وكم ضاق صدره من خلافتهم حتى كاد يهلك نفسه دونهم ، فلعلك باخع نفسك على آثامهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً ، ولا طفهم الرسول وقتل بالذروة منهم والغارب ، وتجاوزهن مسيئهم ، عله يظفر منهم بلفتة إلى الحق أو نظرة إلى ما جاء به من دين تناول الذكور والإناث ، والاحرار والعبيد ، والبيض والسود ، قوامه التوحيد ، ودعامته الفضيلة ، وفي التوحيد تسفيه للشرك والشركاء والمشركين ، وفي الفضيلة طهارة وصفاء وتثبيت لدعامه الحق وانصاف للعقل على الهوى وتقدير للعدالة والمساواة وتثبيد بالرديلة واحتقار للشر ومحو للباطل .

فكبر على القوم أن يكون من بينهم داعياً ولا حلامهم مسفهاً ، وفي القرينتين من هو أولى بالشرف وأجدر بالسيادة ، وقالوا فيما قالوا ، لو أنزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم ، فمكان الرد عليهم ، أهم يقسمون رحمة ربك ، وبالغوا في إيذائه وأسرفوا في الكيد له ، وقالوا فيه ، ساحر أو مجنون ، بل قالوا شاعر نربص به ريب المنون ، أتواصوا به بل عم قوم طاغون ، وتلك سنة الله في المرسلين ، ف . ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك ، وقد مستهم البساء والضراء ، فصبروا حتى جاءهم النصر ، وتحقق وعد الله ، لا غلبن أنا وسلي ، .

ثقافة الأديب:

الأديب لا يكتب

لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد المجيد محمود المسالوت

المدرس بكلية اللغة العربية

نحب أن نعرض هنا لمشكلة يحار فيها الناشئون ، وقد يختلف فيها العلماء والمتأدبون ، هي مشكلة تختلف فيها قولاً وجدلاً ، لا ينتهى عند حد ، ولا يقف لدى غاية ، تختلف فيها بيننا وبين أنفسنا حين تنازعنا الجوانب المختلفة ، والعوامل المشابهة إلى القراءة ، فنقف مترددين حائرين .

هذه المشكلة ماذا نقرأ ؟ أتقرأ للقديما أم للحدثين . أم لهما معا ؟
وأتقصر قراءتنا على ما توضع به العربية من ألوان الثقافة وصور المعرفة أم لا بد من إحاطة واستيعاب ، أو على الأقل وقوف على نتائج الأفكار ، وثمرات القرائح ، ومطارح الأخيصة في كل لسان ؟

إذا التمسنا حلا لهذه المشكلة مما نسمعه من أفواه المثقفين ، تنازعنا تيارات مختلفة وعوامل متباينة ، ففي بعض المجتمعات الأدبية تردد صيحات وتنبؤات صرخات تقول : مالنا وللقدما وآداب القدما ، وقد عاشوا في بيئات وسعهم وانطوت عليهم ومنحتهم من المظاهر والأوضاع مالا م حياتهم ووافق أوضاعهم ، ثم لم تعد ألوان تفكيرهم ولا مطارح أخيلتهم ولا مآثور آدابهم تنسق مع ما نفكر فيه أو نتخيله ، ؟ نسى هؤلاء الناعبون أن الحياة إن اختلفت بعض ألوانها وتباينت بعض صورها ، فهي في سماتها العامة ومظاهرها المشتركة لا تختلف في قليل ولا كثير ، هؤلاء الذين ينفرون من القديم ، ويتذكرون للقدما ، قد خانهم الصبر وخذلهم الجلد ، فلم تعد عقولهم تقبل إلا أخف ألوان الأدب وأبسط مظاهر الثقافة ، ونسوا أن الأساس الذي نبني عليه ، والمصدر الذي نقتبس منه والذخر

الذى نمنح من معينه هو الادب القديم ، فان أغضينا عنه وأغفلنا شأنه بفينا حياتنا على شفا جرف هار ، وأقننا بجدنا الادبي على غير أساس .

وهناك أناس يسيئون الظن بكل جديد ، ويتهمونهم أشنع اتهام ، ويصفونه بالضعف والهزال ، ويؤمنون أعمق الإيمان أن هذا الادب الذى تهدر به طبائع المحدثين لا يصلح للبقاء ، ولا يستحق العناية والاهتمام . يستخفون فيه كل فكرة ويستهنون كل أسلوب ، ويلتمسون العيب فى كل صورة ، ويخترعون المساءة لكل ما يختلج به الفكر أو تفيض به القلوب . ولو سألتهم عن حقيقة ما يخترعون من شبه لا عوزهم الدليل واستعصت عليهم الحججة .

لا عيب فى الجديد لأنه جديد ، ولا مزبة للقديم لأنه قديم . أنما السمو والايدياع أو التخلف والقصور فى القيم الفنية للأثر من ذات نفسه ، فهو الذى يدل على مكانه من الرفعة أو الانحطاط . والتقدم أو الانتكاس لا قدمه ولا حداته .

وقديما ملك أفواما التعصب ، واستولى عليهم الهوى مع جلال أقدارهم وهظم منازلهم ، وأصالة رأيهم فى دولة الأدب ، حتى إن بعض هؤلاء المنعصبين للقديم أملى شعرا لبعض المحدثين على أنه قديم فامتدحه وأطراه وأثنى عليه أجزل ثناء . فلما أنبىء بمد ذلك أنه لمحدث غضب ، ومزق أوراقه وصار يقول خرق خرق .

يقول القاضى الجرجاني فى كتابه الوساطة صفحة ٩٤ فى هذا الصدد (إن خصم المتنبي غريبان : أحدهما يعم بالنقص كل محدث ، ولا يرى الشعر إلا القديم الجاهل وما سلك به ذلك المنهج وأجرى على تلك الطريقة ، ويزعم أن ساقه الشعراء روية وابن هرمة وابن ميادة ، فإذا انتهى إلى من بعدهم كبشار وأبي نواس وطبقتهم ، سمى شعرهم ملحا وظرفا واستحسن منه البيت بعد البيت استحسان النادرة وأجراه مجرى الفكاهة ، فإذا نزلت به إلى أبى تمام وأضرابه نفى يده وأقسم واجتهد أن القوم لم يقرضوا بيتا قط ، ولم يفعلوا من الشعر إلا بالبعد وما أكثر من ترى وتسمع من حفاظ اللغة ومن جلة الرواة من يلجج بعيب المتأخرين - أن أحدهم يُنشِئ البيت فيستحسنه ويستجيده ويعجب منه ويختاره ، فإذا نسب إلى بعض أهل عصره وشعراء زمانه ، كذب نفسه ونقض

قوله ورأى تلك الغضاضة أهون محملاً وأقل مرزاة من تسليم فضيلة لمحدث
والاقرار بالاحسان لمولد .

حكى عن إسحاق بن إبراهيم الموصلى أنه قال أنشدت الأصمعى :

هل إلى نظرة إليك سبيل فيل الصدى وبشفي الغليل

إن ما قل منك يكثر عندي وكثير ممن تحب القليل

فقال والله هذا الديباج الخسروانى : لمن تذاذنى ؟ فقلت إنهما ليليتهما فقال

لا جرم والله إن أثر الصنعة فيهما لظاهر .

ولكن إسحاق هذا جوزى جحوداً بجحود ونكراناً بنكران ، فقد كان كما يقول

المرزبانى ينصر الاوائل فى كل أحواله وكان يتعصب على المحدثين ، ومن كان

يتعصب عليهم أباً نواس وكان يقول هو يخطئ . قال بجي بن على فكنت أنشده

جيد قوله فلا يحفل به لما فى نفسه فأشده قوله :

وخيمة ناطور برأس منيفة تهم يدا من رامها بزيل

إلى قوله .

إذا ما أنت درن اللهاة من الفتى دعا هم من صدره برحيل

فمكان على أمره . فقلت والله لو كانت لبعض أعراب هذيل لجعلتها أفضل

شئ سمعته قط .

وكان من تعصبه على أبى نواس يقول ما ظننت أنى أعيش إلى زمان أرى

شعر أبى نواس ينفق فيه هذا النفاق ، وكان ابن الأعرابى يقول (ص ٢٤٦ الموشح

) إنما أشعار هؤلاء المحدثين من مثل أبى نواس وغيره ، مثل الريحان يشم يوماً

ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيباً .

وهذا تعبير يحمل فى طياته ما كانوا يضرهون من حقد واضطغان على

المحدثين : ويظهر أن المعاصرة غالباً تكون من أقوى أسباب التحاسد وأشد

عوامل التنافر والتحاقد ، حتى إن كلمة الحق فى مثل هذه المواطن تجعل الفحول

يشرقون بريقهم ويغصون بها إذا ضيق عليهم الخناق : ومهما أوتى بعض الناس

من قوة الحجة وسعة العقل ودقة الفهم فقد لا يملكون الغلبة على ما وقر فى

طباهم من حقد ولا ما استكن فى نفوسهم من هوى أو موجدة .

يقول أبو عبد الله النخعي : كنا عند ابن الأعرابي ، فأنشده رجل شعرا لابي نواس أحسن فيه فسكت ، فقال له الرجل أليس هذا من أحسن الشعر . فقال بلى ولكنه القديم أحب الى .

وقال أبو الحسن الطوسي : كنا عند ابن الأعرابي فقال : أيما أحسن عنكم قول أبي نواس :

دع عنك لومي فإن اللوم إغراء وداوني بالنى كانت هي الداء
أو الذي أخذ منه وهو يقول الأعشى :
وكأس شربت على لذة وأخرى تداويت منها بها
فسكتنا فقال : السابق أجود :

وإن هذا لما يدعو إلى الغرابة والعجب ، فإن عصبية الرجل وحقد غصته بقول الحق لما يثير الدهشة حقاً . مع أن أبا النواس فيما أرى فاقه بالاختصار وعذوبة الشعر وسلامته عما ينفّر منه الطبع ويستكرهه السمع والنص الصريح على أن الخمر داء ودواء ، أما الأعشى فإنه يجهد السامع في تعرف مواطن الضمائر المتتابعة ويجعل صدره ضيقاً بها أشد الضيق .

قال ابن قتيبة (وكان الناس يستجيدون قول الأعشى الى أن قال أبو نواس بيته ، فزاد فيه معنى اجتمع له به الحسن في صدره وعجزه ، فللأعشى فضل سبق عليه ، ولأبي نواس فضل الزيادة عليه) .

وكان الأخفش ينقد بشاراً لأنه محدث ويطعن على شعره ، فلما بلغ ذلك بشاراً تهدده بالهجم ، فبكى الأخفش وقال وقعت في لسان الأعشى ثم أخذ بعد ذلك يحتج في كتيبه بشعره ليبلغه ذلك ، فكيف عنه .

فهذا عالم جليل وإمام كبير نقد الشاعر عصبية وأنفة ، ثم استرضاه فرقا ورهباً ، فلم يتحرر قوله الحق ولا منهج الصواب .

وهذا ابن قتيبة الأديب الكبير يدلنا على ما كان يشيع من خلائق بعض العلماء وتحيز بعض الدارسين في عصره من تفضيل السابقين والعصبية على المحدثين ويعلم أن لا يسير على سنتهم ولا يرضى بطريقتهم إذ يقول في مقدمة

كتابه : الشعر والشعراء : ما يأتي ، ولم أقصد فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختاراً له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره . بل نظرت بعين العدل إلى الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه — فأني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه مواضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده إلا أنه قيل في زمانه ورأى قائله . ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم . بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عبادہ ، وجعل كل قديم منهم حديثاً في عصره . فكل من أتى بحسن من قول أو فعل ذكرناه له وأئذينا عليه به ولم يضعه عندنا تأخر قائله ولا حداثة سنه كما أن الردء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه . .

ولقد أطلت في عرض كثير من الصور التي تدل على تحكم الهوى في كثير من النفوس . ولكن لأدل على أن الناس في كل عصر هم الناس والعقول هي العقول والقياس هو القياس وإن اختلفت المظاهر وتباينت السمات .

وكما يختلف الناس في هذا الزمن في تفضيل القديم على المحدث أو المحدث على القديم كذلك كان الناس فيما مضى يخلقون ويتبارون .

ومثل ذلك يقال بالنسبة لما نطالعه أو نحتاجه من ثمرات القرائح ونتاج العقول في الآداب الأجنبية . فكثير من الناس يدعون بسلوكهم وسمتهم إلى العزلة ويرغمون أن هذه الآداب تفسد الأذواق وتحيل الأخيلة وتشكك الناس في قيمة آدابهم .

وبعض الأدباء يتعامون عن تراثنا ويفضون عن نتاجنا ويرون أنه ليس هناك أدب إلا ما جاء عن العرب ونطق به أدباء الغرب .

وأولئك وهؤلاء غالون فيما يرون من رأى ويلتزمون من عقيدة . فإن الاديب الفطن والمفكر النابه لا ينبغي أن يلتفت إلى هذه الترهات والفسافس بل يجب أن يلتزم ما يسنح له من ألوان المعارف وصور البيان مهما كان الزمن الذي تمخض عنها ومهما كان اللسان الذي جاءت فيه .

ولا يفوتني وأنا أعالج هذه الناحية أن أعرض هنا صورتين تكادان تتقاربان

في الموضوع : إحداهما لشاعر قديم والآخرى لشاعر محدث . وسنجد في كل منهما من روعة البيان وخلابة المنطق ، وتحليق الخيال ما يبعث على الإعجاب والإكبار ، فلم يبق المحدث حدائمه من الإجادة والإحسان ومساماة المتقدم على بعد عصره وتراعى زمنه .

قال ابن الرومي في وصف مغنيات :

وقيان كأنها أمهات	عاطفات على بنينها حوائ
مطغلات وما حملن جنينا	مرضعات ولسن ذات لبان
ملقيات أطفالهن ثديا	ناهديات كأحسن الرمان
مفعيات كأنها حافلات	وهي صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى	بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه	وهو يادى الغنى عن الترجمان

وقال في هذا المعنى أو ما يشبهه ، فأبدع أيما إبداع وأجاد أروع إجادة الأستاذ الشاعر المرحوم الشيخ أحمد الزين :

لامست في النفس أوتار هواها	عادة بالسحر أغزو من غزاها
كلما مست يداها وترا	جسد الآخر ما مست يداها
تمسح الأوتار كفا رخصة	أشجت الأوتار من قبل شجها
ويكاد العود يدى كنفها	قبلا لو أن للعود شفاها
لحنها يبعث في مبيت المني	نضرة العهد ومعسول صباها
خفقات يخفق القلب لها	هي أناث فؤادى أو صداها
وحنين كاد من رفته	أن يذيب اللحن في العود مياها
وشجون طالما أخفيها	نفد العود إليها خفكها

إلى أن قال :

كل هذا نطق العود به وتناجي هو والنفس شفاها
فلننظر في شعر المحدثين إلى هذه الدقة العميقة ، وهذا الاستقصاء البارع
وذلك الخيال البديع الطريف وتلك المعانى التي أنسايت من قريب ومن بعيد في
ألفه عجيبة حتى ليحسب المرء أن له بها عهداً وما هي في الواقع مما تحتكم للفكر
وتنقاد للخيال ، إلا بعد كد ومطاوله وشدة احتيال ؟

(٢) هو أبو يزيد البسطامي عاش في بسطام قرب شاهرود في خراسان من أعمال فارس في القرن الثالث الهجري ، وهو من أئمة التصوف .

استمدتها من تعاليم هندية كانت سائدة في بلاد الفرس مسقط رأسه . وحاول الصوفية تدعيم نظريتهم إن نرا وإن شعرا ، وبحثوا لها عن آيات وأحاديث تؤيدها ، فوجدوا في هذا الحديث القدسي : « ما تقرب إلى المتقربون بمثل أداء ما افترضت عليهم ، ولا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى يحبني وأحبه ، فإذا أحببته كنت له سمعاً وبصراً ، فبي يبصر وبني يسمع ، أقول وجد الصوفية في هذا الحديث القدسي بعض ما يؤيد ما يذهبون إليه .

تلك هي أهم أفكار الصوفية التي عارضهم فيها الفقهاء ، ولكن ثمت فكرة أخرى زادت الهوة بين الفريقين اتساعاً ، ألا وهي قول الصوفية بتوحيد الأديان : إن الدين عند الله الإسلام ، قول لاشك فيه ولا ريب ، صريح في دلالاته ، صريح في عبارته ، ليس له باطن أو ظاهر ، ولكن جاء قوم ونادوا بأن الكل إنما يعبد الله ، وأن الإسلام والنصرانية وغير هذه أو تلك من الأديان إنما هي وسيلة لعبادة الله ، التعصب الديني بمقوت عندهم مكروه : لا تكن مسلماً ولا نصرانياً ، ولا تكن صابئاً ولا وثنياً ، ولكن كن من شئت ، على أي دين أردت (١) ، ولكن اعبد الله : اعبد الله إن على صورة الوثن المجري ، أو متجلياً لك في الشمس أو في القمر ، واعبد الله إن متجرداً عن كل شيء ، أو متجداً بأشياء . لترمز لإلحك بأي رمز تريد ، فما دمت مخلصاً في نيتك ، موافياً لعبادتك ، كان ما تفعل حقاً : « فالأديان كلها لله ، شغل كل طائفة منهم بدين ، اختيار اعليهم ، لا اختياراً منهم ، أخذ بهذه الفكرة الحلاج وابن عربي وابن الفارض والجيلي والرومي وغيرهم كثيرين ، ونادوا بها جميعاً إن نظماً وإن نثراً ، ولعل من أجل ما قيل فيها أبيات ابن عربي إذ يقول :

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي	إذا لم يكن ديني إلى دينه دان
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة	فرعى لغزلان ، ودير لرهبان
وبيت لاوثنان ، وكعبة طائف ،	وألواح تورااة ، ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنى توجهت	ركائبه ، فالحب ديني وإيماني

(١) اتخذت البابية البهائية - فيما بعد - هذه الفكرة ، فكانت أم دعامة لدعاياتهم .

أو قوله :

عقد الخلائق في الإله عقائداً وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه
أو قول بعضهم :

إن تحراً للأحجار في اليد عاكف
وإن عبد النار المجوس وما انظفت
فما عبدوا غيري وما كان قصدهم
سواي ، وإن لم يظهروا عقد نيتي

* * *

ويقول السعد التفتازاني^(١) معارضاً الآراء الصوفية ومتحدثاً عن مذهب وحدة الوجود : الحلول والاتحاد مستحيلان على الله ، والمخالفون في هذا منهم نصارى ومنهم منتسبون إلى الإسلام ، ومنهم بعض المتصوفة القائلون بأن السالك إذا أمعن في السلوك ، وخاض لجة الوصول ، فربما يحل الله تعالى فيه ، كالنار في الفحم بحيث لا يتمايز به ، ويتحد بحيث لا اثنية ولا تغاير ، وصح أن يقول هو أنا وأنا هو ، حينئذ يرتفع الأمر والنهي .

ومن هنا نادى الصوفية أن مسألة الإلهام ليس بحجة كما يقول ابن السبكي ، فجعلوا دلالة الذوق فوق دلالة النص ، وقالوا : إذا ما تعارض الأمر والذوق ، قدمنا الذوق على الأمر ، ويقول بعضهم :

يا صاحبي أنت تهمني وتأمري والوجد أصدق نهاء وأمار
فإن أطعك وأعصى الوجد رحمتهم عن اليقين إلى أوهام أخبار

ومن هنا أيضاً قالوا بأن الصوفي يتأق من السماء أحكامه ، التي قد تخالف أحكام الشريعة ، فالصوفية أباحت لهم أشياء هي محظورة على غيرهم .

(١) سعد الدين التفتازاني من كبار العلماء الأحناف له كتب كثيرة مشهورة ، كان يعيش في عصر تیمورلنك ، وروى لي الأستاذ أحمد نرجاني أنه قرأ أن شرف الدين الدرجزيني المتصوف سأله مرة : هل جاء ذكر المتصوفة في القرآن ؟ ، قال نعم ، جاء ذكرهم بعد العلماء ، قال في أي آية ، فأجابه في قوله تعالى : « هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ، يريد وصف المتصوفة بالذين لا يعلمون ، » .

وإن كان لهذه الآراء أثر، فإنما كان عند الفقهاء، الذين، ولا شك، حكموا بكفر هذا، لأن دليلهم وطريقهم إنما هما الكتاب والسنة، وهل بعد الكتاب والسنة دليل ؟!، ومن خالف الكتاب والسنة فقد كفر، فما بالك بهؤلاء القوم، زعموا أن أحكامهم من السماء، بل وزاد البعض منهم، فادعى أنه وقد اتحد بالله، وبلغ منزلة عليا، فقد سقطت عنه التكليف، وزعم أن التكليف خاص بالدوام، ساقط عن الخواص فإنه :

يطالب بالآوراد من كان غافلا فكيف بقلب كل أوقاته ورد

وهذه ولا شك دعوى باطلة، اصططنعها قوم لرغبة في نفوسهم وغاية لهم، وإما لنرى الفقهاء محتمين في هذه الناحية في تقدم لهذا الفريق من الصوفية. بل ومحتمين في تجرييحهم لهم، فقد يقبل المفكر أن يناقش فكرة وحدة الوجود أو الاتحاد والحلول، ولكنني لا أتصور أبداً مسألة سقوط التكليف. إن زعم هؤلاء أنه وحى من الله، فلعل الأرجح أنه وحى من الشيطان.

وتمت مسألة أخيرة أثبت بين الفريقين الفقهاء والصوفية، هي مسألة السماع. نادى الفقهاء بأن لا ضمير في السماع، سماع الجيد الصالح من الأقوال فإن النبي (ص) كان يستمع ويدعو إلى السمع، ويحدثنا أبو حامد الخليلي أنه قال لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، القصاص الرقاق التي في ذكر الجنة والنار أي شيء فيها؟ فقال: مثل أي شيء؟ قلت:

يقولون.

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني

وتخفى الذنب من خافي وبالعصيان تأتي—ني

فقال أعد، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته، ورد الباب، فسمعت نجيبه من داخل البيت وهو يردد البيتين. وليس في مثل هذه الأناشيد من بأس، فقد يكون فيها تذكرة لبعض النفوس الغافلة؛ وإنما تدخل في قبيل اللغو إذا كانت توضع في ألحان الغناء، حتى تكون اللذة في طيب انغامها لا فيما إحسنه من حكمة وموعظة.

هذه هي وجهة نظر الفقهاء كما بوضحها أحدهم ، ولكننا نرى الصوفية قد اتخذوا مجالس الأذكار ، يرددون فيها اسم الله آلاف المرات ، حتى إذا ما أخذتهم الجلالة - كما يقولون - خروا مغشياً عليهم ، إن تعباً أو خشية من الله . ونرى الغزالي يقول في الإحياء : متصوفة أهل هذا الزمان - إلا من عصمه الله - اغزوا بالزى والمنطق والهيئة من السماع والرقص ، ولم يتعبوا أنفسهم في المجاهدة والرياضة .

ولكننا نجد الصوفية يغنون قصائدهم التي يتغنون فيها بحب الله وبالإعراض عن الدنيا ، إنهم فيها لا ينشيدون بغادة حسناء ، ولا يتغزلون بكاءب ناهد لعوب ، ولكنهم يتحدثون الله ، يبينون عن عشقهم لذاته ، ويظهرون حبهم له ، تلك القصائد التي نجدها في ديوان ابن الفارض وفي شعر ابن عربي والسهروردى المقتول :

أبدأ نحن اليكم الأرواح ووصالكم ربحانها والراح



هذه خلاصة للصلة بين النقل والتصوف تظهر لنا النضال الطويل بين الصوفية والفقهاء ، وهو نضال دافع فيه الصوفية عن عقائدهم ، دافعوا بالروح وبالبدن ، وكلفتهم آراؤهم ثمناً فادحاً ، فقد قتل منهم الحلاج والسهروردى ، ونكل بغير هذين .

ومن الحق أن نقول إن العلماء الفقهاء المنصفين ، العارفين روح دينهم ، العالمين بأسرار الشريعة السمحاء ، لم يكونوا أبداً هم السبب في هذا الاضطهاد ، وإنما هي فئة قليلة ، توجد دائماً في كل عصر ومصر وزمان ، تواب الحكام على أمثال هؤلاء المتصوفة الزهاد الناسكين ، وتعصدهم إلى غيرهم من أحرار الفكر ودعاة التقدم أعداء الجود ، فإذا بهؤلاء وهؤلاء يلقون اضطهاداً ويقاسون عسفاً ، ثم لا يلبث التاريخ حتى ينصفهم ، فإذا بذكرهم تعود عاطرة فياحة نضرة .

الأساطير عند مختلف الشعوب

المؤلف: الأستاذ حمزة محمد الشيخ

ليسانسه في الأدب الإنجليزي

لا نستطيع أن نلحق الأساطير Mythology بفروع المعرفة النافعة التي تزداد بها مقدرة الإنسان ، وتربو ثروته ، ويرتفع ذكره ، ويذيع صيته في المجتمع الذي يعيش بين ظهرانيه . ولكنها مع ذلك من المعارف التي لا غناء لنا عنها إذا جعلنا السعادة النفسية والمتعة الروحية هدفاً لنا نتحمها في حياتنا ، فالأساطير مصدر لكثير من الثقافات الشعبية والعقائد الدينية التي إذا أجدنا فهم أسرارها وتوصلنا إلى المعين الذي صدرت عنه جداولها الأصلية ، أمكننا أن نحى حياة هادئة مستنيرة راسخة ، نعرف ماضيها ونستمد من بين رماده ومضات وهاجه تصلها بحاضرها ، وتبرق على أضواءها أحلام المستقبل .

وقد كان العربي قليل الحظ من الأساطير ، ومن ثم نشأت دياناته الأولى نافذة سطحية . لا يمكن أن تجرى مجرى الديانات الهندية أو الإغريقية أو الرومانية ذوات الفلسفات العميقة ، والآلهة العديدة الجبارة ، فهي نتاج أساطير رائمة استلهمتها تلك الشعوب من بيئاتها الزاخرة بشتى الكائنات الخافلة بكثير من الأعاجيب . بل إن العرب قد عرفوا عن آداب الأمم الأخرى وولوا عنها مدبرين ، حين لمسوا فيها ما يهدد عقيدتهم الدينية ويمدو على شعائرهم التي عكفوا عليها طويلاً ، وأمعنوا في الحذر والخوف فتجافوا عن كثير من الفنون الجميلة كالنصوير والتمثيل والاحت حين جاء الإسلام وقضى على عبادة الأصنام .

ولا جدال في أن الأقليم تأثيراً قوياً في النازلين به ، وفي مدى انفساح خيالهم وعمقه ، بل إن الإقليم هو المرجع الأول الذي نعزو إليه وفرة الأساطير وتعددتها في أمة من الأمم أو ندرتها وتفرقها ، ولذلك رأينا العربي في صحرائه الجرداء يعيش عيشة بدوية ، لا مآرى له غير مساكن متنقلة يصطنعها من شعر

الأساطير عند مختلف الشعوب

١٦١

عزلة أو ورناقة ، ولا تكتنفها غير رمال شاسعة لا يحدها البصر فاصطبغ خياله بتلك المسحة السطحية المنبسطة ، وعجزت ملكة الابتكار فيه عن اختراع الموضوعات ، وخلق الشخصيات .

فأما دبابات الأغريق والرومان القدماء فقد انطفأت شعلتها منذ زمان طويل ، ولم نعد نرى لها بين الأحياء فرداً واحداً يتخذها عقيدة لنفسه ، فقد أصبحت لا تمت إلى العقائد الروحية بصلة ، بينما أضحت وثيقة الارتباط بفرعين من فروع المعرفة الإنسانية هما الآداب والفنون ، حيث مازالت تلقى ظلالها في صفوة النتاج الأدبي والفني قديمه وحديثه ، حتى أننا نندر اليوم ألا نجد إشارة إليها في قصائد الشعراء ومقالات الكتاب وخطب الخطباء . فلا بد لمن يرغب تذوق آداب عصره وانتهالها من الينابيع التي أمدتها بالجمال الأسر والسحر الحلال الأخاذ ، أن يسبح بخياله في أجواء مفعمة بالأساطير الأغريقية والرومانية التي جادت بها ملكة الابتكار عند شعوب نشأت في بيئات نابضة بالحياة نائرة بالحركة والنشاط .

ولا بد لنا لكي ندرك مغزى أساطير الأغريق أن نعرف شيئاً عن مدى ما وصل إليه علمهم بتركيب العلم جميعاً ، فقد تناقل الرومان وغيرهم من الشعوب عن الأغريق تلك المعرفة ، كما اقتبسوا منهم كثيراً من العلوم والدين .

وكان الأغريق يعتقدون أن الأرض منبسطة دائرية وأن بلادهم تشغل جزءها الأوسط حيث يحتل جبل أولمبس Mount Olympus ، مهبط الآلهة ، المنطقة المركزية منها . وبدا ذلك القرص الدائري لأعينهم تحرقه من الغرب إلى الشرق مياه البحر الأبيض التي تشطره شطرين متساويين ، وتحف به مياه المحيط التي تجري من الجنوب إلى الشمال في الجانب الغربي وفي اتجاه عكس ذلك في الجانب الشرقي : تلك المياه التي يفيض تيارها ثابتاً هادئاً لانهيجه عاصفة أو تعبث به ريح .

واعتقدوا لذلك أن الجانب الشمالي من الأرض يسكنه قوم تغمرهم السعادة ويحوطهم النعيم الدائم ، لا يعانون مرضاً ولا يشكون عوزاً ولا يجهدون كدأ ولا يفنون حرباً . أما في الجانب الجنوبي فيعيش قوم يدعون الأيثيوبيين Aethiopians تحبهم الآلهة عطفها وتسع عليهم كرمها . وفي الشريط الغربي يقيم



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى



مركز تحقيقات كالمپوئر علوم اسلمى

وساعد على هذا اللون صراع الدولة الأموية مع دعاة العباسية ، ثم قوى هذا الفن ما جدد في ضخوة الدولة العباسية من سطوة الموالى وتمكنهم من فئسة الحكم والحجاية والسبق في ميادين العلوم والفنون . وإلى جانب هذا ما نشأت الحضارة من عبقريات نستشهد فيها بابن المقفع ، والجاحظ ، والصابي ، والحريري ، وابن أبي الحديد ، والقاضي الفاضل ، وكتاب مدرسته الصنع والمتصنعين .

ولست من الذين يضيئون بالزئير الذي خلفته الممارك البيانية ، لأننى أجد فيه قوة - إن سودها الغضب - فقد يشفع لها عندى متانة الأداء ، وصرامة الجلال وأصابة الهدف ، وتسديد الضربة ، وصدق القول أحياناً ، ومن وراء ذلك رسم معالم لنفس المتخاصمين والمتطاحنين قد لا يجده عند المداحين والمطربين بالحق والباطل .

فالقارىء في رسائل المدح والشكر ، يجد مع البيان ملقا يزداد ثم يزداد حتى ليكاد يصرفك عن التمزج بمتعة الإجادة الفنية ، ولكن الجاحظ مثلاً حين يصور البخل ، والصبايى حين يصف من يغدر بعد وفاء ، والحريري حين يرصع في الإشياء تلبس من وراء حرارة الصدق ما مُنِيَتْ به الإنسانية - ولا تزال - في نفوس تعرفها بسيماها من شر قابع في طواياها ، وغدر نابت في حناياها .

ولولا شِكَايَةُ الأدباء ، وشِكَايَاتُ أقلامهم . ولولا صحائفهم المصورة لتلك الطبائع لضاعت معالم نجدها في حياتنا المحدثه أشباهاً وأمثالا حية تجري بيننا ولا توصف إلا بسحر البيان الماضى . في مثله ، وفي قصته ، وفي جملة البليغة ، وسجعته الموفقة ، ولذعته الساخرة ، وتبريضته المفصحة ، ووصيته السارية ، وملحته النالدة ودعائه الشاقة .

ولئنك أيها القارىء لو اجدت في كتب الرسائل والمحاضرات ، ومفردات النقد وبجاميع المحاسن والمساوى ، والمكافآت والمقامات ، حيوات كاشفة عن الانجاء الذى نذهب إليه ونرتضيه من الأدباء الذين عاشوا في حرب قلبية . وأنفوا أعمارهم في ميادين الصراع السياسى والأدبى ، وصدقونا ما وجدوا من متاعب ومصاعب وصارحونا حين لم يسكنهم سلطان الحاكم عن أناس تحكمت فيهم شهوة الطغيان وأطربهم كخار الانانية ، وأعماهم بريق المال ، وتحكم فيهم مارد البخل ، وشيطان

الشَّحْءُ ، والذي يتمتع في هذا الفن البياني ما صورت الأقلام في كتب الرحلات وما وصفت في طبائع بعض البلدان ، وما كشفت من خصائص الأقاليم ، وما قارنت به بين العواصم ، وما فاخرت به على السنة المدن كبغداد ، ودمشق ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وغرناطة . وأمتع ما يتمتع ما جاء في كتب الاندلسيين من مفاخرات بين مدائنهم . وقد تعرض فن القلم في هذا الميدان للأفراد والجماعات وتعدى الطبيعة إلى الحيوانات فضلاً عن الدويلات وخلافها ، والممالك وساسنها . وإنني لذا كر مثلاً موجزها ، ونفعا تشير إلى الخصائص والطرائف ويكفي منها الإنباس . روت كتب الأدب فيما أجمع الناس عليه من بخل أهل (مرو) : إن تمامه ابن أشرس . قال :

« ما رأيت الديك قط في بلدة إلا وهو يدعو الدجاج وينثر الحب إليها ويلطف بها ، إلا في (مرو) فإنني رأيته يأكل وحده ، فعلت أن لؤمهم في المأكل ، . ومن رسالة « للبديع الحمذاني ، يذم والياً فاشلاً في عمله : « إنما جره له الجبل ليصفع كما صفع من قبل ، وستعود تلك الحالة لحالة ، وتنقلب تلك الجبل حباله ، إلى أن يقول : (ماذا ؟ أليس ما سلب أكثر مما أعطى ، وما حرم أفضل مما أولى وما عدم أوفر مما غنم) ، وما كتبه (بشر البلوي) في تصوير بعض الناس :

« أما بعد ، فإن من الناس من تحمل حاجته أهون من خش طلبه ، ومنهم من حمل عداوته أخف من ثقل صداقته ، ومنهم من إفراط لائمه أحسن من قدر مدحته ، وإن الله خالق (فلانا) ليغم الدنيا ويقدر به أهلها . . . فاسأل الذي فتن الأرض بحياته ، وغم أهلها ببقائه ، أن يدل بطنها من ظهرها ، .

° ° °

ولا أريد أن أطيل في الاستشهاد ، فإن للشعراء والبلاغة في الذم والهجاء نظماً ونثراً ما تضيق به الصفحات ، ولكتبتنا لانشك في أن في الناس من يستحق الإرهاق بالوسيمات الأدبية القاسية ، ومن هؤلاء من اتصف بسوء الخصال ، واتسم بأخلاق الأراذل والاندال ، وجعل اللؤم جلبابه وشعاره ، والبخل وطامه ودناره .

ومن أوجز ما قاله أديب أعرابي في وصف أقوام « هم أقل الناس ذنوباً

الى أعدائهم، وأكثرهم تجرماً على أصدقائهم، يصومون عن المعروف ويفطرون على الفحشاء . .

وقال أحمد بن يوسف الكاتب في بنى سعيد بن مسلم بن فتية : « محاسنهم مساوية السفل ، ومساوئهم فضائح الأمم ، والسفهم معقودة بالعي ، وأيديهم معقولة بالبخل ، وأعراضهم أعراض الذم ، فهم كما قيل .

لا يكثرون وإن طالت حياتهم ولا يتبد مخازيهم وإن بادوا ، وقد لا يكون الكاتب صادقا في حملته ، ولكنه فيما يصور لا يعدم أن تكون ضرباته فيما توجه واجدة من تنزل عليهم صادقة واصفة مفصحة .

وانى لمنه الاستشهاد بصنيع الجاحظ في بخلائه حين وصف صد يقاله فقال . ولا تقولوا الآن : « قد والله أساء أبو عثمان إلى صديقه ، بل تناوله بالسوء حتى بدأ بنفسه ، ومن كانت هذه صفته وهذا مذهبه ، فغير مأمون على جليسه وأى الرجال المذهب .

هذا والله الشيع ، والتبوع ، والبذاء وقلة الوفاء .

اعلموا أنى لم أتمس بهذه الأحاديث عنه الا موافقته ، وطلب رضاه ومحبه ولقد خفت أن أكون عند كثير من الناس دسيسا من قبله ، وكينا من كمانه وذلك أن أحب الأصحاب اليه أبلغهم قولا في آياس الناس مما قبله ، وأجودهم حسنا لأسباب الطمع في ماله... الى أن يقول : لأن شهرته بالقبيح عند نفسه في هذا الاقليم قد أغنته عن التنويه والتنبية على مذهبه . وكيف وهو يرى أن سهل بن هرون واسماعيل بن غزوان كانا من المسرفين ، وأن الثورى والكندى يستوجبان الحجر ؛ وبلغنى أنه قال : لو لم تعرفوا من كرامة الملائكة على الله إلا أنه لم يتلهم النفقة ، ولا يقول العيال : هات ، لعرفتم حالهم ومنزلهم) .

ومهما يكن ، فإن الادب الذى حمل أثر تلك الجراحات القلبية يستحق الدراسة النفسية ، والصيرفة البلاغية ، والمقارنات التاريخية ، والاستقصاءات لا العجالات المسرعة ، والخطرات الطائرة ، والنخبات الخاطفة وإنها لجراحات لا ينضب لها معين :

جراحات السنان لها النشام ولا يلثام ما جرح اللسان

آراء في إعجاز القرآن الكريم

لفضيلة الأستاذ محمد عبد المنعم غفامبي

المدرس بكلية اللغة العربية

— ١ —

عنى العلماء من قديم بالنايف في إعجاز القرآن الكريم . ومن أشهر هذه المؤلفات :

١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ولعل الذى دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .

٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أمرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ وبيانه الفصيح المأثور .

٣ — إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى عام ٣٠٦ هـ ؛ وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحاً كبيراً سماه المعتضد وشرحاً آخر أصغر منه .

٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ

٥ — كتاب إعجاز القرآن للرماني م ٣٨٣ هـ ، وكذلك الإمام الخطابي م ٣٨٨ هـ ، وكذلك الإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني م ٤٠٣ هـ .

٦ — دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .

٧ — كما ألف في الإعجاز نثر الدين الرازي م ٦٠٦ هـ ، وابن أبي الاصبغ

م ٦٥٤ هـ ، والملكاني م ٧٢٧ هـ ، والرافعي المتوفى عام ١٩٣٦ م

- ٢ -

كان الجعد بن درهم في عصر بني أمية يقول : إن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة ^(١) ، وجاء بعده أبو إسحاق إبراهيم النظام المعتزلي المشهور فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم أن يأتوا بمثله ، ويُروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلية .

ولكن الجاحظ يثبت الإعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته الساحرة وخصائصه البيانية الرائعة ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ؛ فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم يقدرُوا ، ومُجِّل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .

وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، وأرجعه إلى خصائص النظم العربي ودقائقه ، وما تجدد ^(٢) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل ، والعجيب من الوصف حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يجر لسان ، ولم يبن بيان ، ولم يساعد إمكان وكما يقول عبد القاهر أيضاً : ^(٣) أعجزتهم مزايًا ظهرت لهم في نظمهم ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجاري ألفاظها ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه

(١) سنعود إن شاء الله إلى هذا الرأي بالبحث والنقد وإقامه الأدلة على بطلانه .

(٢) ص ٦ المدخل إلى دلائل الإعجاز من الطبقة الثانية .

(٣) ص ٢٢ دلائل الإعجاز .

سورة سورة ، وعشراً عشراً وآية آية ، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها بل وجدوا انساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور . .

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة : ما في القرآن من الأخبار عن الغيب مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه ؛ وما فيه من أخبار الأمم القديمة ، مع أمية الرسول الظاهرة ؛ ونظم القرآن الكريم وعجيب تأليفه ، وتباهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم : وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، في كتابه المشهور ، إعجاز القرآن الكريم ، الذي قال فيه ابن العربي : لم يصنف كتاب مثله :

وتحدث القاضي عياض في كتابه ، الشفاء ، عن إعجاز القرآن الكريم وأرجعه إلى وجوه أربعة : أولها : حسن تأليفه والتأم كله ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة ، وثانيها صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انتوى عليه من الأخبار بالمغيبات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة (١) . .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحيط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشاكله بعض أجزائه بعضاً ، وحسن إئتلاف أنواعها وإتمام أقسامها وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره . ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ما تضمنه القرآن من المزايا الظاهرة والبدايع الرائقة في الفوائح والمقاصد والخواتيم في كل سورة وفي مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه ، الإتيقان ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضاً من آراء العلماء فيه (١) .

وأرجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . وأرجعه الإمام الزمخشري إلى تأليفه الخاص به .

وقال ابن حازم في « منهاج البلغاء » : « وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاء في جميعه استمراراً لا يوجد له فترة ، لا يقدر عليه أحد من البشر ، .

وقال الإمام الخطابي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ثم قال : حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تلاؤماً وآشاكلاً من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهد له بالتقدم في أبوابه ، والترقي إلى أعلى درجاته .

إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ، ثم تلاقت في موجة ، في بحر تلجى زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم في سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ؛ وأعاد المحدثون الكلام فيه ، وإن كانوا لم يرجعوا بطلان : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ، ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلي . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

— ٣ —

وهذا كله على أي حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه . ونحن نعود بالقارئ إلى فطرته الأدبية وحدها ، فنطالها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز .

(١) ص ١١٨ ج ٢ الاتقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الإنسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية : ودعى العرب إلى الإيمان برسالته ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في فن البيان ، ومع أنهم كانوا أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وبليغاً . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والادباء والبلاغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان . ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والإكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سوره . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه من الآثار الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة بمتعة ، لبعده ما بينه وبين سواه من الآثار كبعد ما بين السماء والأرض : فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة : ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

— ٤ —

وبعد . فإننا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم تتجلى فيما يلي :

١ — بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ؛ ويكفيك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ؛ ثم هي للآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الغاية ، هي أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكنائياته وتشبيهاته وأمثاله ، وحكمته وإعجازه ومجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبياني في القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجودته ، وأخذه بالافتدة والاسماع والمشاعر والمواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الإنسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ، ولهوها وجدها ، وأملها وألمها ، وكفرها وإيمانها ، والمثل العليا في الحياة المهدبة الكريمة التي يعمل لها الإنسان وتسير لشاغلها الأمين الإنسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم : فهو ليس كتاب قصص أو تسليية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع . وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من نفاة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية السكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجددنا أن نقول : إنه كتاب الإنسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم . وفي حياتهم ، وفي حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والامكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة مراميه ومناحيه ، وعبقريته غايانه ورسالته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء والحق والعدالة ، والحربة والمساواة بين الناس : وصدق الله العظيم حين يقول : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيرا ،

ولنا عودة إلى هذا الموضوع إن شاء الله ، وما توفيقى إلا بالله ؟

الشَّعْرُ

لنورستاز ابراهيم عمار

مراقب بالآزهر

من يوم أن اختفى من الوجود صوت حافظ وشوقي ، والشعرُ العربي
يُعاني أزمة عاتية ، قد مُج لها صوتُهُ ، وخبا ضوءه ، ولم يعد يُسمع
ألا كأثمة المسدور .

وقد كان العهدُ به أنه الصوت الممدوي الذي يسجل الأحداث ، ويسبق
الزمن في رسم الخطط ، وتحديد الأهداف ، ويحفز الأمة إلى نيل حقها المغصوب
وينير لها طريق الخلود ، ويذهبها إلى حياة أخلاقها وعاداتها ونهضاتها بسياج من
الخلق والطموح والدين . كل ذلك وغيره في أدب تمهوله النفس ، وأسلوب
تصبو إليه القلوب والمقول .

ومن عجب أن يكون هذا في وقت لم يتم الأمة نُضجها . ولم يتكامل وعيها ،
ولم ينتشر التعليم في بنيتها ، ولم تُعم ثقافة الغرب ولم تنعدها البعثات ، ولم ترج
الصحف ، ولم ترق وسائل المدينية ولم يرتبط العالم برباط المؤسسات ،
وعند المؤتمرات .

أجل ولم تكن الفتاة إلا كما مهجلا ، لم تدخل مدرسة ، ولم تقرأ كتابا ، ولم
تغش النوادي ، وكان دون دخولها الجامعة خرط القتاد . . . ولم تُسد في الناس
حالة الشك في كل شيء ولا شيء : شك في العقائد والعادات ، وشك في
الهدوء والاستقرار ، وشك في الأمن وفي السلام ، وشك في أي النظم خير
لبنى الإنسان .

فما بالنا اليوم نتفقد الشاعر فلا نجد ؟ وإذا وُجد فلغته متخاذلة ، وخياله ذابل ، ومعانيه متداعية من الأعياء والانحطاط .

يقول أولو الرأي الثقات : إن سبب رقي الأدب بنوعيه ، الشعر والنثر ، ينحصر في ثلاثة :

١ — صلاحية البيئة .

٢ — انتشار الثقافة .

٣ — الحكم الديمقراطي .

وقد اكتملت لامتنا بفضل الله هذه الخلال ، ومع ذلك فقد هزل الشعر ، أو هو على وشك الزوال .

فهل من سبب لذلك ؟ .

قد يكون سببه أن ناشئتنا لا يجدون في برامج التعليم المنهل العذب الذي يروى ظمأهم ويحببهم في الشعر .

فليس هناك درس لانشاده ، ولا جائزة للتفوق فيه ، ولا عقاب ينال من لم يحفظ منه شيئاً ، ولا تقدير لمن يمارسه أو يحاول التبريز فيه .

وقد يكون أن الصحف والمجلات - وما أكثرها - لا تفرد صفحة واحدة لانشاد الشعر والتفنن به ، فكانت نتيجة ذلك أن تبورى في النثر حتى بلغ الذروة أو قارب ، وطرح الشعر جانبا .

وقد يكون أن الأدباء أرادوا أن يسدوا النقص في الأدب العربي ، ويدروا عنه ما علق به ، فأقبلوا على « القصة » ، يتنافسون ويتبارون فيها ، وانتصر لهم أصحاب الصحف والمجلات وصادف ذلك هوى لدى كبار الكتاب ، فعالجوها في بيان محكم واتقان بديع .

وقد يكون أن المجتمع المصري لا يُعنى به في قليل ولا كثير : فلغة المحاضرات

والحوار في المنتديات ، والخطب في المناسبات ، تنثر كلها ، حتى في حفلات الرثاء والتأبين لا تكون نسبة الشعر لما يُلقى فيها إلا كنسبة الواحد للثبات .

قد يكون هذا كله ، وقد يكون غيره ، عاملاً قوياً من عوامل نفور المتعلمين من الشعر ، ورغبتهم عنه ، وانصرافهم إلى النثر يؤدونه كأحكم ما يكون الأداء ، ويتقنونه كأحسن ما يكون الاتقان .

وهكذا خلا مكان الشعر أو كاد ، وأصبحنا نعيش على الماضي وذكره ، اللهم إلا من نفر يدعونه ويصطنعونه .

أنا لا أنكر أن الشاعرية هبة من عند الله ، ولكنها موهبة تذكو بالعمل ، وتنمو بالنعيم ، وتؤتي ثمارها في ظل الرعاية والتشجيع .

والآن وقد أتاح الله للغة العربية وللأزهر المعمور شيخاً ضليعاً ومصلحاً فذا خبيراً بشؤوننا العلمية والعقلية ومقوماتها فأنا نرتقب علاجه لهذه الحالة في لطفه واطمئنان ، ولا سيما وقد وثق نفسه بعمد أذاحه على رجال الصحف والمجلات ، في أوائل هذا الشهر ، بأنه سيعمل على تهذيب الكتب ، وتنقيح البراج ؛ ويعد بأنه سيمنح جائزة للمتفوقين في اللغة العربية .

فلعل ناشئة الأزهر تقدر هذه الرغبة ، وتقبل على رياض الشعر فتجني أطيب ثماره ، وتستوحيه ألوان القول فتعضي به قدماً إلى أبعد غاياته ، وتسمو به إلى أرفع درجاته ، مضمنة إياه معاني تغذي العقول وتؤثر في النفوس .

ولعل معالي وزير المعارف وهو عميد الأدب وزعيم المتأدبين يهب تدهور الشعر قبساً من تفكيره العميق الدقيق ، وخبرته الطويلة واقتداره على التنفيذ فإذا المتروك مألوف ، وإذا المسكروه محبوب ، وإذا شباب الأمة مقبلون على الشعر يتذوقونه ، وعلى قوله يجيدونه .

لفتة من لفتاتك يا معالي الوزير الجريئة الخيرة تعيد للشعر مكانه ، وتزيل عن الأدب عابه ، وترفع اللغة رأسها ، والأمة صوتها ، ونجعلك في هداد المجددين الخالدين .

الافضل بن بذر الجمالى

مؤسّس ناد عبد المنعم محمد السبع

مدرس أول الآداب بالمعالم الديفية

رأينا في مقالنا السابق ، كيف استطاع الافضل ، أن يرفع المستعلى ، إلى عرش الخلافة ، بعد أن قضى على نزار وحركته ، وقد كانت فرقة النزارية ، إحدى النتائج التي تمخضت عنها هذه الحركة . وسأعرض لهذه الفرقة في إيجاز .

قدم مصر عام ٤٧٩ هـ . حسن بن الصباح ، رئيس الاسماعيلية ، واجتمع بالخليفة ، المستنصر الفاطمي ، ، وتسكفل بنشر الدعوة له في خراسان ، فأمدّه الخليفة بالمال ، وسأله ، ابن الصباح ، عن الخليفة من بعده فقال : ولدى نزار . وأقام ، ابن الصباح ، بمصر ثمانية عشر شهراً ، رحل بعدها إلى بلاد العجم ، حيث جد في نشر دعوته ، وبثّ تعاليمه ، حتى كثّر أشياعه ، وأخذ يجمع السلاح سرّاً ، ولما قويت شوكرته ، استولى على قلعة الموت Castle of almut ، من ملوك الديلم ، وجعلها مركزاً لبثّ دعوته الاسماعيلية ، ثم استولى بعد ذلك ، على قلعتي الدروخان ، ومن قلعة الموت أرسل دعاته ورسله إلى مختلف الجهات ، وأخذ ياتي على العلماء مسائل ، منها : لم كانت الايام سبعة ؟ والبروج اثني عشر ؟ ، وادعى أنه استأثر من إمامه بغوامض العلوم ، وكثّر اغتياله للملوك والرؤساء ، وجاء الامام ، أبو حامد الغزالي ، إلى نيسابور ، حيث ناظر أتباع ابن الصباح ، وألف كتابه ، المستظري ، ، وأجاب عن مسائلهم . وسميت فرقة ابن الصباح هذه ، بأدى الامر ، بالاسماعيلية نسبة إلى ، اسماعيل بن جعفر الصادق ، ، جد الفاطميين الأكبر ، وتحت هذه التسمية خدمت طائفة الاسماعيلية الفاطميين خارج مصر ، ودعوا إليهم . وبعد مقتل نزار على النحو الذي أشرنا إليه ، سميت هذه الطائفة باسم النزارية ، نسبة إلى نزار ، الذي نص الامام المستنصر على خلافته ، من بعده ، وهم يعتقدون أن نزاراً لا محالة ظاهر على وجه الأرض مرة

أخرى وتحت هذه التسمية ، خدم النزاريون حزبهم ، وانفصلوا عن الفاطميين بمصر ، بل وعملوا على منازعتهم على نحو ما ذكرناه . وسميت هذه الطائفة أخيراً « بالحشاشين » ، إما لأنهم كانوا يتعاطون الحشيش *consommateurs de hachich* ، أو لأنهم كانوا يقومون بأعمال لا يأنبها إلا الحشاشون ، فأطلق عليهم هذا الاسم تجوزاً ، وكانت لهذه الطائفة نظم تشبه نظم الطائفة الاسماعيلية عامة ، ولكنها تختلف عنها في التفاصيل . وهكذا كان نشوء فرقة النزارية ، من الظواهر العامة التي يتميز بها عهد الأفضل .

قضى المستعلي في ١٦ صفر سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) ، وتولى الأفضل أخذ البيعة الآمرية ، وخلف المستعلي ثلاثة أولاد هم : أبو علي ، ونعت بالآمر ، وجعفر وعبد الصمد ، وكان عمر الأمر يوم تولى الخلافة ، خمس سنوات وشهراً وأربعة أيام ، ولم يستطع الخليفة الطفل أن يعتدل على فرسه يومذاك ، فأجلسه الأفضل أمامه ، على فرسه ، وطاف به القاهرة على هذه الحال .

وللقارىء أن يتصور مدى السلطة التي كانت للأفضل أيام هذا الخليفة ، فلما كبر ، واشتد ساعده ، أحس بشغل يد الأفضل عليه ، ففكر في التخلص منه ، وفعلاً تم له ما أراد على نحو ما سذكروه .

وكان للأفضل سياسة داخلية واضحة ، فقد بنى دار الوزارة الكبرى ، التي يقول ابن عبد الظاهر ، إنها من بناء أبيه بدر ، ولكن كتب ابتعايات الأملاك القديمة التي بتلك الحطة تدل على أنها من عمارة الأفضل ، وكانت هذه الدار طوال العهد الفاطمي ، مقر الوزراء ، ثم أصبحت بعد ذلك مقر الملوك ، وصار يطلق عليها دار السلطانية . كذلك بنى الأفضل دمرصداً ، بسبب الاختلاف بين التقاويم الشامية والمصرية كل عام ، كما أمر ببناء خليج تسميه العامة ببحر أبي المنجا ، نسبة إلى أبي المنجا بن شعيب ، اليهودي الذي قام بحفره . كما بنى في عهده كثير من الجوامع والمساجد ، منها جامع القبلة والمسجد الجيوشي ، وبنى المئذنة الكبيرة بجامع عمرو بن العاص ، والمئذنة السعيدية المستجدة به أيضاً ، وبنى جامع الجيزة كذلك . ووجدد الأفضل عام ٥٠١ هـ ديواناً أسماه ديوان التحقيق ، أقام عليه أبا البركات بن الليث النصراني .

وأنشأ الأفضل كثيراً من البساتين والحدائق . وكان من أهم التنظيمات التي أحدثها الأفضل نظام خيالة أطلق عليه Squires of the chamber .

وكان على هؤلاء الفرسان تنفيذ أوامره دون اعتراض ، فهم يشبهون عندنا اليوم ما نسميه بالفرق القدانية . ويقص علينا الأستاذ Hanotaux في كتابه Egyptienne Histoire de la Nation ، جزء ٤ ص ٢٦٧ طائفة أخرى من إصلاحات الأفضل . فيقول إنه بظهور الأفضل على مسرح التاريخ الفاطمي ، ابتدأت سلسلة متصلة من الإصلاحات المالية ، فقد غير من قيمة القطع النقدية ، كما وضع نظاماً لتولى الخلافة في حالة عدم وجود وريث ، كما أنشأ مجلساً للعددين ، ونتج عن إصلاحات الأفضل ، رخاء شامل ، وأضحى ناتج الضرائب ضعف ما كان عليه أيام أبيه ، وليس هذا نتيجة لتعسف أو نحوه ، وإنما بسبب الإصلاح الذي عم مرافق البلاد جميعاً . كذلك يجب أن نقرر أن ازدهار البلاط الفاطمي لم يكن مرجعه إلى الخلفاء وحدهم ، بل أيضاً إلى وزراءهم الأكفاء الأقوياء الأثرياء .

أما عن سياسة الأفضل الخارجية ، فتتلخص في استرداد الممتلكات الفاطمية التي ألحقها دولة الأرتقيين ، وهي بيت المقدس وسائر فلسطين وقسم من غربي سوريا ، وكانت دولة السلاجقة إذ ذاك بالقسم الشرقي من سوريا . كما كانت هذه القوى التي تنظم الشرق الأدنى على شيء كثير من التفكك والانحلال ، مما مهد السبيل أمام الصليبيين إلى لقمة سائغة . ويجب أن نقرر هنا أن حملة الأفضل التي شنها على سكان ، الأرتقي سنة ٤٩٠ هـ ، وانتزع بها بيت المقدس من يديه ، كانت في الواقع خطوة خطاها في صالح الصليبيين ، إذ بها أزال عقبة كثيرة من سيلهم ، ولقد تحمل السلاجقة الدقة الصليبية الأولى ، فذهبت إمبراطوريتهم مع الريح ، وأضحى الشرق الأدنى كله تحت رحمة الصليبيين ، لما شاع بين دوله من التفكك والانحلال . ولقد عقد الأفضل مع الصليبيين معاهدة ذهبت المصادر في تحليلها مذاهب شتى ، فابن الأثير يقول إن الأفضل عمد إلى مخالفة الصليبيين خوفاً من قوة السلاجقة ، ويقول الأستاذ Hanotaux إن الأفضل قد توخى بذلك وجه الحكمة . أما الأستاذ ستانلي ل . بول Stanley L. Poole ، فينقل عن كتاب Cp. Aist. Occ. der Croisades Iv. 48,78 تعليلاً ،

لا أراه من العقل في شيء ، إذ يقول : إن الأفضل ربما يكون قد انتوى التحول إلى المسيحية ، وذلك يتمضه ما نعرف عن عقيدة الأفضل ، ومواقفه الدينية المشهورة ويقولون كذلك إن الفضائل التي اقرفها الصليبيون قد خوفت الوزير المصري . غير أن هذه المعاهدة الوهمية ، لم توقف الصليبيين عند حد ، إذ لم تمس الدافع الذي حرك الفرنجة من بلادهم ، وهو التعصب الديني الأعمى . والمهم هو أن الصليبيين اكتسحوا الشرق الأدنى ، وأشبعوا أهله تقتيلاً ، ودياره نهياً وتخريباً ، وكانت السياسة الدفاعية هي المسيطرة على الموقف حتى آخر الخلافة الفاطمية ، وبميل مؤرخو العرب إلى انتقاد سياسة الأفضل الخارجية من هذه الناحية .

ويحسن في ختام حديثنا عن الأفضل ، أن نلم بشيء من أخلاقه وصفاته ، كان الأفضل مكرماً لأهل العلم والأدب ، وكان هو نفسه شاعراً وأديباً ، وخلف مكتبة تحوى خمسة آلاف مجلد ، وصارت مصر مقصد الطامعين في جوده من الشعراء والأدباء . وكان شديد الغيرة على نسائه .

وكان الأفضل يميل ميل السنين ، فألغى الاحتفال بالموالد الأربعة : مولد النبي صلى الله عليه وسلم ، ومولد فاطمة رضي الله عنها ، ومولد سيدنا علي رضي الله عنه ، ومولد الإمام الخليفة القائم بالآمر ، وكان ذلك في الواقع كافياً لتفويض دعائم الحكم الفاطمي ، كما كان ذلك أيضاً سبباً في كراهية الزاريين له ، وقد يكون ميله السنّي أحد العوامل التي أطاحت بحياته . كان الأفضل ثابت العقيدة راسخ الإيمان ، عادلاً ، حسن السيرة : حكى أنه لما قتل ، وظهر الظلم بعده ، اجتمع جماعة من الناس ، واستغاثوا بالخليفة ، ولعنوا الأفضل ، فسألهم الخليفة عن سبب لعنهم إياه فقالوا : إنه عدل وأحسن السيرة ، فغادرنا بلادنا وأوطاننا ، وقصدنا بلده لعدله وأصابنا بعده هذا الظلم ، فهو كان السبب في ظلمنا ، فأحسن الخليفة إليهم . وكان الأفضل كذلك خل الرأي حسن التدبير ، معتزلاً بنفسه .

وقد ترك الأفضل ثروة ، أفاضت المصادر في عدها وحصرها ، حتى بالغت إلى حد كبير ، ولكنها تنبئنا على أي حال ، بما كان لذلك الوزير ، من سلطة مطلقة لاتحد . قضى الأفضل مقتولاً : قيل بتدبير من الطائفة البديعية التي ضيق عليها الأفضل في حياته ، وقيل - وهو الأرجح - بتدبير من الخليفة الأمر ، لنضيقه عليه ، وتدخله في كل صغيرة وكبيرة من شئون الدولة .

الخليفة العباسي في القاهرة

لإستاذ هاشم محمد إبراهيم

مدرس الآداب بمعهد القاهرة

المعروف أن الظاهر بيبرس هو الذي فكر في اجتذاب الخلافة العباسية إلى القاهرة بعد أن نزلت بها كارثة المغول ببغداد ، والمعروف أيضاً أن نجاحه في ذلك المشروع قد أقال الخلافة من عثرتها ، غير أنه من الحق أن يعلم أن بيبرس ليس أول من فكر في ذلك المشروع من الملوك والسلاطين الذين تداولوا حكم مصر الإسلامية ، وإنما هو الذي تولى تحقيقه بنجاح ، فقد حاول أحمد بن طولون اجتذاب الخليفة المعتمد إلى مصر كإنعاش أراد بذلك أن يلبس دولته الجديدة ثوباً شرعياً أو أنه كان يفكر في وسيلة ينتقم بها من الموفق ، فجاءت هذه الوسيلة خبط عشواء في إقامة الخلافة بمصر .

ولقد فكر محمد بن الإخشيد في ذلك حينما ذهب إلى الشام سنة ٩٩٤ ميلادية لإغاثة الخليفة المنفي .

ثم إنه لما وجد أمراء المماليك البحرية أن السلطة أصبحت في أيديهم بعد قتل الممظم توران شاه رأوا أن يوطدوا أركان دولتهم بموافقة الخليفة العباسي .

ولقد فعل ذلك أمراء المماليك عندما أعلنوا سلطة شجرة الدر ، وأرسلوا إلى بغداد يلتمسون الموافقة من الخليفة على ذلك السلطان ثم خلعوا السلطانة الماهرة تحت تأثير ما وصلهم من عدم رضا الخليفة .

ثم إن المعز أيبك لجأ للخلافة العباسية في الشهور الأولى من سلطنته ، ثم حدث أن تمزقت الخلافة العباسية بسقوط بغداد في يد هولاكو وقتل الخليفة وولده وأكابر بغداد .

ومن المحتمل أن معظم أبناء البيت العباسي قد قتلوا أثناء تلك الكارثة ، وقد فر من أبناء البيت العباسي ومن رجاله كل من استطاع إلى الفرار سيلاً

الخلافة العباسية بالقاهرة

١٨١

وربما كان معظم أولئك الذين استطاعوا الفرار من الأبعدين في البيت العباسي وليسوا من القرييين في سلسلة الخلفاء .

ومهما يكن ، فقد غيرت هذه الحادثة من سياسة الممالك نحو الخلافة ، فعملوا بعد سقوط بغداد على اجتذاب الفارين من أبناء البيت العباسي وغيرهم إلى القاهرة .

والراجح أن السلطان قطز كان يفكر في أكثر من هذا ، وهو إمكان إعادة الخلافة إلى بغداد ، والدليل على ذلك أنه استدعى إلى دمشق بعد نصرته العظيم في واقعة عين جالوت سنة ١٢٦٠ ميلادية أحد أبناء البيت العباسي بالشام ، واسمه أبو العباس أحمد ، وبايعه بالخلافة وزوده بالجند ، ورجع هذا الخليفة من عند قطز إلى العراق وانتصر فيها على شرذمة من التتر وافتتح الأنبار وغيرها - ثم حدث أن اغتيل قطز فأرسل السلطان الجديد وهو بيبرس إلى أبي العباس أحمد يستدعيه إلى القاهرة ، غير أن أبا العباس كان قليل الحظ تلك المرة إذ أن سليلا آخر من أبناء البيت العباسي واسمه أبو القاسم كان قد سبقه إلى بيبرس - ولابد أنه أعلن أولويته وجدارته لمنصب الخلافة .

لإزاء هذا السباق بين هذين العباسيين فضل أبو العباس الرجوع إلى الشام وقصد حلب حيث بايعه أميرها شمس الدين أقوش ، وكان خارجاً عن طاعة بيبرس ، وقد بايع الخليفة أيضاً كثير من زعماء حلب - ثم أخذ أبو العباس يعد مشروع العودة إلى العراق وقصد بما اجتمع إليه من أمداد زوده بها أمير حلب إلى مناوشة التتر مرة أخرى ، وأقام هناك .

أما أبو القاسم فقد وصل إلى القاهرة ، وتلقاه بيبرس وأنزله بقلعة الجبل ، وبالغ في إكرامه وأحضر العربان للتعرف عليه وإعلان تسلسله من العباسيين وعقد مجلس عام أعلن فيه أن الأمير أبو القاسم ابن الخليفة الظاهر العباسي وبويع أبو القاسم بالخلافة ، كما بايع أبو القاسم السلطان بيبرس ، بأن يكون سلطاناً على البلاد الإسلامية وما يضاف إليها . ثم كتب بيبرس في نفس اليوم إلى الملوك والنواب في سائر الممالك ، بأن يأخذوا البيعة على أنفسهم وعلى من قبلهم للخليفة

الجديد ، وأن يدعى للسلطان بعد الخليفة ، وأن تقش النقود باسمهما - وأخذ بيبرس يجهز الخليفة بالجيش لاسترجاع الخلافة إليه .

ويقال إن ما أنفقه بيبرس لا يقل عن مائون دينار . وخرج السلطان مع الخليفة إلى دمشق ، وفي عزمه أن يكون عدد الجيش الخلفي ١٠ آلاف فارس من عنده - غير أن أحد أمراء الموصل وسوس للسلطان بدمشق أن الخليفة إذا استقر ببغداد نازع دولة المماليك وأخرجهم من مصر ، فأوجس بيبرس خيفة ولم يجهز الخليفة بأكثر من ٣٠٠ فارس ، وسار الخليفة بهذا العدد إلى العراق حيث انضم إليه ٥٠٠ فارس من عرب العراق الذين كان قد لجأ إليهم في أول أمره ، كما لحق به أعداد من حماة الموصل ، وتقدم الخليفة بهذا العدد القليل إلى مشهد على أطراف العراق حيث وجد منافسه أبا العباس أحمد في ٧٠٠ فارس من التركان ، فاتفقا على اجتماع الكلمة لإقامة الدولة العباسية ، وتقدما معاً شطر بغداد يريدان محاربة النتر ، وبالقرب من بلدة هيت إلتنى النتر بالعباسيين ، وكان أمراً مقضياً إذ غلب ذلك الجيش ، وفي معظمه ، ولم يفلت سوى أبي العباس ، أما الخليفة المنكود فلم يعزف عنه خبر .

وسواء أرسل الظاهر بيبرس يستدعي أبا العباس إلى القاهرة أم لم يرسل ، فإن المعروف أن هذا الأمير العباسي وصل إلى دمشق بعد واقعة هيت بشهر فقط ، وخرج منها إلى مصر ، واحتفل به بيبرس وأنزله في قلعة الجبل ، كما فعل مع الخليفة أبي القاسم .

على أن السلطان بدأ يفكر في إقامة الخلافة العباسية في مصر وأنه ترك فكرة إقامتها ببغداد — ثم أخذ بيبرس يعمل لمبايعة أبي العباس بالخلافة كما فعل مع منافسه السابق ، فقرى نسب أبي العباس على الناس بعد ما ثبت عند قاضي القضاة ولقب بالحاكم بأمر الله وبإيعه السلطان بذلك ، ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور البلاد الإسلامية وخطب للخليفة الثاني على منابر القاهرة ودمشق ومكة والمدينة .

وهكذا أحييت الخلافة العباسية للمرة الثانية بالقاهرة ، وأراد بيبرس هذه المرة أن يكون الخليفة تحت عينه بالقاهرة — ولم يرد بيبرس بذلك أن يخلق

في عاصمته سلطة دينية أو سياسية بجانب سلطته ، بل أراد أن يكون الخليفة سلطة نافعة فحسب يستمد منها ما يحتاج إليه من الحماية الروحية والمركز الشرعي ، وبدل على ذلك أن السلطان لم يأمر تلك المرة أن يكتب اسم الخليفة على السكة وأنه أسكنه أحد أبراج القلعة الذي عرف فيما بعد ببرج الخليفة — ولم يترك له غير الدعاء في الخطبة .

على ذلك لم تكسب الخلافة العباسية إلا كسباً زائفاً ، إذ كان سلاطين المماليك منذ ذلك الوقت يفرضون لأنفسهم — حتى الفتح العثماني — مركزاً ممتازاً بحجة أنهم حماة الخلافة ، وصارت القاهرة مركز العالم الإسلامي وذلك فوق مركزها التجاري .

واستمرت الخلافة العباسية في دولة المماليك قانعة بذلك القسط الطفيف من السلطان والنفوذ ، ولم يفكر أحد من الخلفاء في توسيع نفوذه ، بل قنعوا بالتضييقات التي أحدثها قلاوون حين حوِّلت الخلافة إلى قلعة ثانوية بعيدة عن القلعة وهي قلعة الكباش بالبعالة الحالية ، غير أن الخلافة العباسية بدأت تتحرك فعلاً للانتقام من بيت قلاوون في أيام الناصر محمد ، حينما مالت إلى أحد السلاطين الذين تخللت عهودهم أيام هذا السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وهزقت الخلافة في شخص القائم بها بعد عودة الناصر إلى السلطة مرة ثانية في أوائل القرن ١٤ م .

وبقيت الخلافة على هذا الضعف تحت رقابة دائمة حتى انتهى عصر الناصر محمد في أواسط القرن ١٤ م ، وتولى الدولة المملوكية سلسلة أبناء البيت ، القلاووني وعملت الخلافة العباسية جهدها للانتقام من أبناء هذا البيت ، وكان آخرها ما استطاعته من خلع آخر أبناء ذلك البيت من السلطة المملوكية في أواخر القرن ١٤ م مما أدى إلى انتهاء دولة المماليك الأولى سنة ١٣٨٢ م وقيام الدولة الثانية (المماليك البرجية) .

وحاولت الخلافة في عهد الدولة الثانية أن تجمع بين السلطة والخلافة معا لكنها فشلت في ذلك ، وبقيت هكذا على حالها من الضيق حتى حدثت لها النقلة الثانية من القاهرة إلى اسطنبول بعد فتح الأتراك العثمانيين لمصر وإزالة الدولة المملوكية بها .

أسلوب الجدل في القرآن

للمؤلف الشيخ عز الدين اسماعيل

يلاحظ كل من قرأ القرآن الكريم وتديره ، وعاش معه بعقله وقلبه فترة متطاولة ، أن قواعد الإيمان وأصوله التي هي لباب الدين الخفيف وجوهر الدعوة ، لم تعرض في القرآن بشكل تعقيدى جامد ، يأخذ الناس بالشدة ، ويقسرم على قبول تلك المبادئ أو الأصول قسراً دون ما إجمالة للفكر ، وإعمال للذهن ، بل على العكس من ذلك تماماً ، إذ هو ينزل بتلك الأصول المقدسة إلى منزلة الأخذ والرد ، أو قل إلى منزلة الجدل والمناقشة .

فوجود الله سبحانه وتعالى ، ووحدانيته ، والحياة الآخرة ، والبعث ، وما شاكل ذلك من تلك الأصول ، نجدوها جميعاً تعرض لا بصورة إلزامية وحسب ، ولكنها تعرض في صورة جدلية وأسلوب حجاج لا تقرر جديداً إذا قلنا إنه مفهم ومقنع وبالتالي يكون ملزماً ؛ ولكن الإلزام هنا عن بيضة وبعد اقتناع واقتناع .

ولا تقرر من صفات القرآن جديداً إذا قلنا إن هذا الجدل يعرض على ذهن كل إنسان - مهما اختلف الناس في ثقافتهم بين السذاجة والعمق - فيجد فيه مقنماً أى مقنع ؛ بل أكثر من هذا ، فظنى أن هذا الجدل لم يكن في صورة المختلفة ليحدث في العقول الاقتناع لحسب ، بل كان يصحبه - وما زال - لون من الإيمان عميق ، نتيجة رضى وارتياح نفسى تحدثهما الحجة وأسلوب الحجة جميعاً . وما وقع لجبير بن مطعم من أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور . فقال : لما بلغ الرسول هذه الآيات : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ، أم خلقوا السماوات والأرض ، بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك ، أم هم المصيطرون ... » قال : كاد قلبي أن يطير ؛ وذلك أول ما قرأه الإسلام

في قلبي (١) - فهذا مثل ملبوس لما كان يتركه هذا الأسلوب الجدلي في النفوس من أثر، وما كان يحدثه من تعميق الإيمان في القلوب . وإذا كنا لا نستطيع أن نقرر أن عقلية العرب إبان الدعوة كانت آخذة بأسباب الفلسفة والكلام مثلما صارت إليه في العصر العباسي مثلاً، فإن صور الجدل التي نزل بها القرآن هي الصور التي كانت توائم عقلية العرب التي لم توغل بعد في الفلسفة أو الكلام وإن صلحت فيما بعد لأن تكون مادة طيبة عندما تفلست العقول وأخذت بأسباب الكلام . وهنا لا يملك الإنسان إلا أن يشهد ويسجل لوناً من ألوان الإعجاز من رب القوى والقدر . والسيوطي لا يبعد عن هذا حينما يذكر لنزول الجدل بهذه الصورة هذين السببين :

أولاً : بسبب ما قاله : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .

ثانياً : إن المسائل إلى دقيق الحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن مَنْ استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم ينحط إلى الاغصص الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملفزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في حاجة خلقه في أجلى صورة ليفهم العامة من جليها ما يفهمهم وتلزمهم الحجة، ويفهم الخواص من أنبيائها ما يربى على ما أدركه فهم الخطباء .

والآيات الجدلية في القرآن معنية بجوانب ثلاثة هامة وبارزة، أولها وجود الله ومعرفته، وثانيها وحدانيته، وثالثها الخلق أو الإنشاء والإعادة أو البعث وهذه الجوانب - كما سبقت الإشارة - أصول جوهرية في العقيدة نعرض لها فيما يلي .

أولاً . فيما يختص بمعرفة الله اثبات وجوده تصادفنا تلك الصورة الرمزية الرائعة المتمثلة في قصة إبراهيم عليه السلام . وإذا قال إبراهيم لآبيه آذرتخذ أصناماً آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين . وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي، فلما أفل، قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما

أفل قال لن لم يهتدي ربي لا كون من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إني برى عما تشركون . إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين ، فهذه الطريقة يرتقى العقل إلى معرفة الله الحق : فلا هو الكوكب ، ولا هو القمر ولا هو الشمس الأكبر ، ولكنه هو الذي فطرهن جميعاً وفطر السماوات والأرض . وفي ذلك تصوير دقيق لاستنباط العقل وجوده الثابت ، الدائم من المتغير ، الحائل ، وإنا لنقرأ هذه الآيات ، إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض آيات لقوم يعقلون ، فنقرأ فيها الأدلة المسادية والبراهين المملوسة على وجود الخالق المبدع ، وهذا من باب معرفة العلة بطريق المعلول ، أفى الله شك فاطر السماوات والأرض .

وبهنا أن هذا الأسلوب السهل البسيط الواضح في التدليل قد انطوى على مادة فلسفية أشبهت عقلية كنهلية ابن رشد بعد ذلك بثمانية قرون ، فاستبط منها ما سماه دليل الاختراع والخلق ، أى إبداع الأشياء ، ودليل العناية Providence أى خدمة هذه المخلوقات لتحقيق غاية . وعلى هذا الأساس تدبر قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء » ... الآية ، وقوله . « راجع سر ٣١ آية ٢٠ ، ٢١ » .

ثانياً : وبالمبدأ العلى البسيط يعرف كل إنسان أن لكل موجود موجد ، ولكن لم لا يشترك أكثر من موحد في إيجاد الشيء ؟

الجواب : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدنا ، لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يحجرى تدبيرهما على نظام ولا يتسق على إحكام ، ولما كان العجز يلحقهما أو أحدهما . وذلك لأنه لو أراد أحدهما إحياء جميع وأراد الآخر إماتته فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزئ الفعل إن فرض الاتفاق ، أو لا متناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف ، وإما أن لا تنفذ إرادتهما فيؤدى إلى عجزهما ، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدى إلى عجزه ، وإلا لا يكون

عاجزا^(١) ، ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من آله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعل بعضهم على بعض . .

ثالثا : ثم لننظر أخيرا كيف قدم الحجج الباهرة لمن أنكر البعث كالدهر بين القائلين ، وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين ، س ٢٣ آية ٣٧ . لقد دليل سبحانه وتعالى على إعادتهم وبعثهم من جديد بأن الذى يبدأ الخلق فى قدرته أن يعيده ، فمنها تقاس الاعادة على الابتداء كما صور ذلك تعالى فى أول سورة الحجج : يأياها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا ، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج . ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور ، فى هذه الآيات دليلان ، الأول نجده فى أنفسنا حيث كنا ترابا ثم نصير إلى الموت ، والثانى فى تلك الأرض الهامدة الميتة حتى إذا نزل عليها الماء دب فيها الحياة وأنبتت نباتا حسنا . وهكذا فى الأرض أدلة وآيات ، وفى أنفسنا أدلة وآيات لا تترك مسربا للشك ، ولا مجالا للمكابرة . وانظر إلى هذه المقدمات فى سورة ق : . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا ، ، فهل يخالج نفسك شك فى هذا ؟ فإذا آمنت — وإنك لا تملك إلا أن تؤمن — بهذا ، فكذلك يكون البعث ، أو ، كذلك الخروج ، وعلى هذا النحر تستطيع أن تندبر فى قوله تعالى : . وضرب لنا مثلا ونسى خلقه . . . الخ ، الآيات ، آخر يس .

هذه هى النواحي الثلاث البارزة فى الجدل القرآنى . ولا أحسبك وقد أممرت عليها ذهك ، ولبثت معها قليلا ، إلا قد أدركت مغزى قول جبير بن مطعم : كاد قلبى أن يطير ، . وأى رفق بالعقول ذلك الذى طالعه فى قوله تعالى :

« أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون . أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون ، لقد أخذ هذه البساطة في الحجة وقوتها مع ذلك ونصاعتها . ولو استطاع الإنسان أن يقرب ذلك بصورة من الصور لتثلث له صورة مرب كبير يأخذ الاطفال باللين والرفق ، وإذا اختلفوا معه قال : « يا أبنائي الأعزاء رويدكم ! وهيا تفاهم ، - وجل الله تعالى عن المثليل : وألست تحس بتلك الشفافية في قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ، أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذبا فعليه كذبه ، وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . يقول ابن الأثير ممتعياً ، ألا ما أحسن مأخذ هذا الكلام والطفه ، فإنه أخذ بالاحتجاج على طريقة التفسير ، فقال لا يخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم إن تعرضتم له . هذا وفي الكلام من حسن الأدب والإنصاف ^(١) ، وأين إذن يكون حسن الأدب في المجادلة ، والإنصاف في الحكم ، إن لم يكن في كتاب الله الكريم ؟

ولتبين مع ابن الأثير قوله تعالى : « واذكر في الكتاب إبراهيم إله كان صديقا نبيا . إذا قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا . يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك ، فاتبعني أمهك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان ، إن الشيطان كان للرحمن عاصيا . يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا . » يقول ابن الأثير : هذا كلام يهز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ؛ وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويعظه وينقذه مما كان متورطا فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العقل ، رتب الكلام معه في أحسن نظام ، مع استعمال المجاملة والالطف والأدب الحميد والخلق الحسن مستنصحا في ذلك بنصيحة ربه وذلك أنه طلب منه أولا العلة في خطيئته منه على تماديه موقظ من غفلته ، لأن المعبود لو كان حيا مميزا سمعاً بصيراً مقتدراً على الثواب والعقاب ، وأنه بعض الخلق يُستخف عقل من أهله للعبادة ، ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق

كالملائكة والنبين ، فكيف بمن جعل المعبود جماً لا يسمع ولا يبصر ، يعنى به الصنم ؛ ثم ثنى ذلك بدعوته إلى الحق مترقفاً به فلم يسم أباه بالجهل المطلق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن منى لطائفة من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا تستنكف . وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بهدابة الطريق دونك ، فاتبعنى أنجك من أن تضل . ثم ثلث ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال : إن الشيطان الذى استعصى على ربك ، وهو عدوك وعدو أهلك آدم ، هو الذى ورطك فى هذه الورطة ، وأنتاك فى هذه الضلالة . . ثم ربح ذلك بتخويفه إياه سوء العاقبة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به ، ولكنه قال إنى (أخاف) أن يمسك (عذاب) فنكر العذاب ملاطفة لآييه . وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله . يا أبت توسلا إليه واستعظافاً (١) .

وأخيراً ، فعلمه لم يعد خافياً أنه من أراد أن يتعلم أسلوب المجادلة وآدابها وطرقها المنطقية والفنية ، فعليه أن يقرأ القرآن ، ويتدبر ، ويدرس النظر ، ليستخلص العبر وليجد غذاءه القلى والنفسى موفورين .

مركز تحقيق كاميون علوم إسلامي

الفصاحة

قال أبو وجرة السعدى يصف كلام زجل :

يكفى قليل كلامه وكثيره ثبت اذا طال النضال مصيب

وأشدد أبو العباس محمد بن يزيد المبرد ولم يسم قائله وهو مولد ولم ينقصه توليده من حظ القديم شيئاً :

طبيب	بداه	فنون	الكلام	فلم	يعنى	يوماً	ولم	يهذر
فان	هو	أطرب	فى	خطبة	قضى	للمطيل	على	المنذر
وان	هو	أوجز	فى	خطبة	قضى	للمقل	على	المكثر

فِعْلُ الْمُؤَلِّفَاتِ ابْنِ سِينَا

مؤلفات ابن سينا

ابن سينا من أشهر فلاسفة الإسلام إن لم يكن أشهرهم جميعاً . فقد وعى كل ما يمكن أن يعيه حب للعلوم من المعارف التي كانت رائجة في زمنه ، وألف فيها كتاباً أو أكثر ، وهو محدود واحداً من الأفراد القلائل الذين جمعوا الثروة العلمية للعالم الإسلامي ، وتركوها أثراً قيماً لمن بعدهم . فلا غرو بعد هذا أن يبقى اسمه حياً في أفواه المتعلمين ، وقد يتعداهم إلى الأميين أيضاً ؛ فإنه كما ألف في الأفلاك وحركات النجوم والكواكب ، ألف في الفلسفة والطب والعلاج ، وتناقل الناس ما كتبه ، وعنوا به عناية خاصة لما كان عليه من الشهرة والتفوق . وقد لقبه العلماء بالشيخ الرئيس لفضله ووزارة علمه . كان تركي الأصل ولد ببلخ وانتقل إلى بخارى ومنها أخذ ينتقل في المدن طلباً للعلوم ، وتصيداً للمعارف . وقد عد له المحصون نحو مائة مؤلف في جميع العلوم . وقد اهتم العالم بتلك الكتب وتناسخوها لما حوت من نفائس المعارف ، وقد شغل العارفون بذلك في جميع مراكز العلم بعد وفاته إلى يومنا هذا . وقد نسب إليه بعض مروجي الكتب مؤلفات ليست له لتروج بين الناس ، وتنبه العلماء لهذا التدليس فتنبعوه في كل زمان وفي كل بلد بعد وفاته ، لتخليص مؤلفاته من الدخيل ، وقد وفقوا إلى ذلك بما بذلوه من جهد ومثابرة . وقل من أتعب عشاق العلم بعد وفاته ، كما أتعبهم ابن سينا ، ولكن ذلك يرجع إلى سمو مؤلفاته ، واستحقاقها لتجربتها مما ليس منها إبقاء على الثقة بها ، والتعويل عليها .

فلما أوف وقت إقامة مهرجان لابن سينا في هذا العام أو ربيع الذي يليه ، انتهزت الإدارة الثقافية من جامعة الدول العربية هذه الفرصة لاجل أن تجمع أكثر ما تستطيع جمعه من مظانه في أقطار الأرض ؛ فبعثت بعوثاً إلى تركيا وإيران وأسبانيا ليمنوا مندوبيها من أخذ صور ما عساه أن يكون لديها من مؤلفات هذا الفيلسوف الإسلامي الفذ ، وقد ألفت في مصر لجنة لجمع المؤلفات التي تطبعها الأمم المتحدة بذلك لابن سينا ، وترتيب البحوث والخطب التي تلت في المهرجان المنوى لإقامته احتفالاً بذكرى ابن سينا في ذلك المهرجان . فكان أول ما يجب على لجنة المهرجان عمله هو أن تخلص مؤلفات ابن سينا وتدل على أماكن وجودها ، وقد وكلت عمل هذا الإحصاء إلى الأستاذ المستشرق الضليع الألب جورج شحاتة قنواتي ، وكلفته حصر هذه الكتب في جميع المكتبات المشهورة ، وخاصة مكاتب استانبول التي جمعت من مؤلفات ابن سينا أكثر مما جمع غيرها ، وكلفته فوق هذا أن يصف هذه الكتب ويقسمها إلى موضوعاتها ، وأن يربتها بحسب تواريخ ظهورها . وهذا تكليف ثوم به الجماعة فبالك بفرد . ولكنه رغمًا عن المشاق التي تعترض سبيله ، والمتاعب التي يجب تحملها للوصول إلى غرضه ، فانه قد وفي بما عهد إليه . وإني أدعه يحدد مدى عمله بقلمه فقد كتب في كتابه الذي بين يدي يقول :

« إني لم أتوخ بعملي هذا أن أصل إلى موسوعة جامعة تحوى كل ما يخص ابن سينا ، ولا أدعي أن ما أقوله هنا هو الكلمة القاطعة في المشاكل العديدة التي تواجه الباحث المهتم بإنتاج ابن سينا . فعملي أكثر تواضعاً من هذا وذاك . إني أريد فقط أن أضع بين يدي الباحثين بعض الوثائق الخاصة بإنتاج ابن سينا ليستطيعوا على ضوءها أن يتابعوا أبحاثهم . وبمعنى أدق أن أحصر جميع مؤلفات ابن سينا ، مطبوعاً ومخطوطاً ، وأن أشير إلى محتوياتها ومظانها ، وإلى المواضع التي بها هذه المخطوطات ، مع وصفها على قدر ما تنسج له طاقتي .

« وبما يجعل هذا العمل ذا أهمية إني رجعت فيه إلى مخطوطات الآستانة التي أتيج لي أن أراها في زيارتي إلى تركيا سنة ١٩٤٩ . ففي الآستانة من مؤلفات ابن سينا القسط الأوفر ، إذ هناك ما يربو على الآلاف والخمسمائة مخطوطاً لابن سينا ولا يخفى أن الإطلاع عليها أمر أساسي لعمل كهذا ، . ولقد كان شعوري منذ

البدء أن يكون محور مجهودى مخطوطات الاستانة ، ولقد قلت هذا فى لجنة ابن سينا فى القاهرة فى نوفمبر سنة ١٩٤٨ ، فرحبت اللجنة بهذه الفكرة ، وكلفتنى أن أقوم بمحصر مخطوطات الاستانة حين إقامتى مع البعثة العلمية للمخطوطات التى أرسلت إلى هناك .

ثم أخذ يبين ما مهد سبيل البحث له وأفاض فى ذلك ، والمطالع على العمل الذى قام به ، والتدقيقات التى استخدمها لضبط أرقامها ، وتأمين موضوعاتها ، يدرك لأول وهلة المشقات التى كابدها ، والمجهودات التى بذلها ، ويجد نفسه مدفوعا إلى شكره عليها ، والثناء عليه من أجلها . فهى والحق يقال خدمة للعلم والحكمة قل من يكابد مثلها فى سبيل خدمة العلم والحكمة فى زماننا الراهن . فترجو الله أن يثيبه عليها ثواب العاملين المخلصين ، وأن ينفع بها طلاب المعرفة ، وهو الغرض الذى توخاه من القيام بحقها ، والجزاء الذى يرجوه عليها .

تاريخ داريا

هو مؤلف تاريخى نفيس للنفاضى عبد الجبار الخولانى رحمه الله ، عني بنشره المجمع العلمى العربى بدمشق بعناية الاستاذ اللغوى النابه سعيد الافغانى .

أما داريا فهى أكبر قرى الغوطة الجنوبية لدمشق تبعد عن دمشق نحو ثمانية كيلو مترات جنوبا إلى غرب ، ويبلغ عدد أهلها خمسة عشر الفا وقد كانت فى أكثر العصور حاضرة العلم والادب . لذلك عنى بأفراد كتاب لتاريخها النفاضى عبد الجبار الخولانى فى نحو سنة (٣٦٥) وترجم فيه لسبعة وأربعين من أهل الحديث فى داريا ، وهو عدد قليل لم يستوف ، فأين هو مما كتبه عنها ابن عساكر وهو يقع فى ستة اجزاء ؟ وهو كتاب يحتوى على فوائد مركزة ومزايا علمية لا توجد فى غيره ولذلك رأى المجمع العلمى العربى ان يأمر بطبعه فكان ما اراد وله الشكر . ولا يجوز أن ننسى فضل الذى عنى به وهو الاستاذ الجليل سعيد الافغانى فقد انفق من الجهود المشكورة ما يجعل كل قارىء يعجب بما خدمه به من التحقيقات .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَيْسَ مِنْ هَبْنَانِ بَلَدٌ

الكهانة أينما

نعود اليوم لمناقشة ما كتبه حضرة الاستاذ خالد محمد في كتابه (من هنا نبدأ)
فنقول :

قال حضرته : ، والآن : نتمم بهذه الأسئلة : ، ماذا تريد الكهانة بدعوتها
الناس إلى الفقر ؟ ولماذا تسخر نفوسهم للدفاع عن مصالح الكبار ؟ ولماذا تكافح
كل محاولة لتحول اجتماعي يريده المجتمع ، ويتضرع شوقاً إليه ؟ ، .
نقول : لم نر نحن ولم نسمع ولم ير غيرنا ولم نسمع أن واحداً من العلماء
تصدى يوماً من الأيام لدعوة الناس إلى الفقر ، أفلم يكن من الحكمة في مثل هذا
المقام الخطير أن ينقل عنه بعض ما قال حتى لا ينهم بأنه يكيل النهم جزافاً ، ليرد
عليها ، توسلاً لقول ما يريد أن ينشره من المبادئ ، كما يفعل القصاصون .
إن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم نفسه ، كره الفقر واستعاذ منه في حديث
مشهور ، نقله أئمة الحديث ، فهل يحرق عالم إسلامي أن يمدحه ويتخذ ذلك مذهباً له
ينشره بين الناس ، وفي عهدنا هذا ؟

وأى عالم ديني سخر نفسه للدفاع عن مصالح الكبار ، وفي أى مجلة أو جريدة
أو كتاب نشر هذا الدفاع ؟

وما هو التحول الاجتماعي ... الذي يريده المجتمع ويحول رجال الدين دونه ؟
كل هذا كان يجب بيانه للناس ليكون الكلامه وقع في نفوسهم وتأثير في
عقولهم . أما ما نقله عن (ولز) وحاول الاستاذ أن يجعله مثالا للامة الإسلامية
في العصر الحاضر ، فمطلب بعيد المنال ؛ فإن الفرق بين ما عليه المسلمون ، حتى
عامتهم ، من العقائد الدينية ، ونظمهم الحكومية ، وروابطهم الاجتماعية ،

ووجهاتهم الأدبية ، وخاصة في هذا العصر ، لا يمكن أن يقارن بما ذكره (ولز)
عن سلطان الكهان قبل آلاف السنين !

يقول الأستاذ خالد مستهزئاً :

« ليس من الإنصاف أن نطمح الكهانة فتنتعها بالجمود المطلق ، فإن لها مرونة
خارقة تمدّها دائماً بإمكانات التفاعل مع التلاور ، وتلبي بها حاجات المجتمع . ماذا
يريد الناس ؟ أيريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة اشتراكية جاعزة ، وهم
مستعدون أن يجودوا بها عليهم ليعيشوا في ظلمها أعزة شاكخين كرماء . تلك
هي اشتراكية الصدقات ! فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي وافي الخ . الخ .
يقول الأستاذ : يريد الناس اشتراكية وعدالة ، ونحن نقول : أما العدالة
فلسنا نتكلم فيها فهي الغاية السامية لجميع الخلق ، ونحن هنا كغيرنا نطمح شأنها
ونطلبها ؛ ولكن الناس عندنا لا يطلبون الاشتراكية . نعم لدينا حزب اشتراكي
وله جريدة تنشر مبادئه ، ولكن لم ينتخب من أعضائه أحد للبرلمان ، وقد رشع
حاضرة زعيمه نفسه لمجلس النواب مرات ، فلم يحصل على الأصوات الكافية ،
لا نقول هذا تحقيراً له فهو محام فاضل ، ولا للبيادى التى يدعو إليها ، ولكننا
نقوله تدليلاً على أن هذه الأمة لا تروج فيها الدعوة إلى الاشتراكية . وليس
في مجلسي البرلمان عضو واحد يمت إلى الاشتراكية بسبب ، فكيف بعد هذا
يستطيع أن يقول الأستاذ خالد : إن الأمة تريد الاشتراكية ؟ بل ليس في العالم
المتمدن كله غير روسيا والامم الواقعة في دائرة نفوذها هي التي يسود فيها
هذا المذهب ، ولكن بقية العالم المتمدن ليس للاشتراكية فيها شأن خاص ،
فهى هنالك تعتبر حزباً من الأحزاب عدد أعضائه نوابه في مجالسها النيابية أقل
من ربع مجموعهم . فإذا كان هذا شأن أوروبا في تقدير الاشتراكية ، فهل يتصور
أن تكون البلاد الإسلامية أكثر تقدراً لها منها ؟

أما قول الأستاذ خالد مستهزئاً : « فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي
واف ، ووسيلة ناجحة لمحاربة الفقر ، وإسعاد الشعب ، ومطاردة متاعبه وشقائه ،
وإنك لتسمع وترى الدعوة إلى الصدقة والإحسان في كل مناسبة حتى تنكاد تشك
هل أنت في مجتمع أو ملجأ ، . . ونحن نذكر المقصود من كلمة الصدقة هنا ونبين
وجه اعتماد المصلحين الاجتماعيين من المسلمين عليها فنقول :

المقصود بكلمة الصدقة هنا (الزكاة) المفروضة على الأغنياء لتتفق في حفظ اتزان الطبقات الاجتماعية ودرء عائلها ؛ وأشد هذه العلل وقوع طائفة كبيرة منها في إقلال لا يمكنها من توفية حاجات حياتها ، ولا حماية وجودها من شروها ؛ فيكون حقا على الموسرين من إخوانهم أن ينزلوا عن جزء من أموالهم لتلك الطبقات لتتفادى غوائلها ، فهو حق طبيعي لهم باعتبار أنهم جزء من الهيئة الاجتماعية ، التي لا يتأتى لها أن تقوم برسالتها إلا بتضامن طوائفها ، وتكافل جماعاتها .

وقد فطن الأوروبيون لهذا الأمر الجلل في القرنين الآخرين ، فعملوا جاهدين على القيام به ، فبدأوا بزيادة أجور العمال ، لحماية أسرهم من الغوائل الطبيعية ؛ وما زالوا يترقون فيه تحت حافز من مطالبات الطبقات الدنيا بالانصاف ، حتى بلغوا فيها شأوا بعيدا ، من أظهر آثاره ما قرروه من الإتاوات على رؤس الأموال وسموه بضريبة الضمان الاجتماعي ، وحقوق أخرى فرضوها على أصحاب الإيرادات الضخمة بلغت في بعض الأمم نحو تسعين في المائة من تلك الإيرادات . ولولا هذه المحاولات لما هدأت الفتن ، ولاندلعت السنة نيرانها من ناحية الطبقات المحرومة من المال .

ومن يتأمل بعلم يجد أن ما استخدمه الأوروبيون من هذه الوسائل القيمة من الضرائب المختلفة ، سبقهم إليها الاسلام بتكليفه الأغنياء بدفع (الزكاة) عن أموالهم . وقد سماها بالصدقات تحبيبا لادائها إلى نفوسهم ، وبما يدل على أنها ليست من نوع الصدقات التي تمنح للفقراء والمعوزين أنها إجبارية ، والصدقة اختيارية ، وأنها لا تجب كما تجب الزكاة بواسطة عمال الدولة ، فهذه ضريبة حكومية واجبة التحصيل ، ولو أدى تحصيلها إلى اراقة الدماء . حتى إنه لما انتقل النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وتولى أبو بكر الخلافة ، أضربت بعض القبائل عن دفع الزكاة . فعزم أبو بكر على أن يجبرهم على دفعها ، وأخذ في إعداد العدة لذلك . فكلّمه عمر بن الخطاب في الأمر ، ورجاه أن يتشد في تنفيذ ما أجمع عليه خشية أن تتور القبائل وتصبأ عن الإسلام وهي قريية عهد به ، فقال له خليفة رسول الله . والله لو منعوني عقال بغير كانوا يؤدونه للنبي صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ؛ وما عثم حتى أرسل إليهم بالجنود تترى ، وقاتلهم وأراق دماءهم في سبيل تحصيل الزكاة ، وهذا لا يكون إلا إذا كانت الزكاة ركنا من أركان إقامة الدولة . مثلها كمثل الضرائب التي تتقاضاها الدول عن الأراضي الزراعية وعوائد الأملاك الخ .

وعلى هذا فيكون الإسلام قد سبق العالم أجمع إلى وضع ضرائب على الأثرياء
تجبي منهم لاسد مفقر الاجتماع ، ورأب صدوعه ، بتفاوت الناس في درجات
الكسب . والحكمة في ذلك هي أن الأموال تبحر الأموال ، فلو ترك الأغنياء
وشأنهم ، امتصوا بقوة وسائلهم معين الثروة الاجتماعية ، ولم يتركوا للفقراء
إلا الأورشال ، ففسدوا حالهم ويتأخرون عن شأو غيرهم من الموسرين ؛ ولا يزال
يتسع الفتر بين الثريين حتى يصبح الفقراء مستعبدين للأغنياء ، ففسدوا حالهم ،
وكثيرا ما يحملهم الإملاق على الثورات ، فيختل نظام الجماعة ، ويعتل وجود
الامة ؛ ثم ما هي إلا بضع مصادمات يتخللها ضروب شتى من النهب والسلب ،
حتى يعم الجميع الخراب .

من هنا ترى أن (الزكاة) نظام اجتماعي نمرته حفظ التوازن بين طبقات
الجماعة ، كان الإسلام أول واضع له ، وهو من أقوى الأدلة على أن الشرع الإسلامي
وحى إلهي ، وضع لكل موطن من مواطن الضعف في الجماعات الآخذة به علاجا
يتقي به شرور الانحلال والتلاشي ، فما نحن بصدد من أمر الصدقات وهي الزكاة
يجب أن يعتبر آية موجهة لإكباره ، وباعثة على تأييده وإجلاله .

ولو عملت الحكومات الإسلامية بما شرعه الإسلام من تحصيل ضريبة
الزكاة ، لبلغ إيرادها منه ملايين كثيرة من الجنيهات تسد خلة الفاقة في الطبقات
الدنيا من الجماعات ، وتؤدي ما تؤديه الضرائب التي عمدت إليها في العهد الأخير
الحكومات الأوروبية لانتقام شرور الإقلال ، الذي تتعرض له الطبقات المحرومة
من المال في الجماعات ، ولما يمكن بواسطته أحداث التعادل بينها على نسبة لاندع
للفقراء عذرا في زعزعة أركان الاجتماع ، والتألب على قلب نظمه التقليدية ،
وتفكيك عرى وحدته العمرانية .

ومن العجب العاجب أن الأستاذ مؤلف كتاب (من هنا نبدأ) يتجاهل
هذا كله ، ويمضى كأنه يعتبر أن الزكاة التي عبر عنها الشارع في بعض المواطن
بالصدقات ، من النوع الذي يرضخ به الأغنياء للفقراء ، وهو يعلم أنه ليس كذلك
أصلا ولا موضوعا ؛ فإن هذا مما يتفضل به المحسنون على المستجدين طوعية بغير
إجبار ، وقد يمتنعون عنه بتاتا فلا يطالبهم به أحد ؛ أما ما نحن بصدد فهو

(حق معلوم) يحجب بواسطة عمال الحكومة ، ويعاقب الممتنعون عنه . فإن دافعوا عن أنفسهم أجبروا عليه وأخذ منهم قسراً ؛ وله مصارف يوجه إليها ، وقاية للمجتمع من غوائل عدم التوازن بين الطبقات ، فأين هذا من ذاك ؟ ذاك شائع بين جميع الشعوب ، فإن في جميعها محسنين يعطفون على المعوزين ؛ ولكن هذا من موارد الحكومة الإسلامية ، تجنبه بواسطة عمالها ، وتنفقه في صيانة الاتزان بين طبقات الهيئة الاجتماعية ، حتى لا تميل كفة الميزان بواحدة منها فيختل نظامها ، وتصبح حرباً على الموسرين .

ولكن الأستاذ المؤلف يستغل هذه المغالطة إلى أقصى حد فيقول :

« معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والهوان . إن الإسلام حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي ، لم تكن الصدقة (ولا يقول الزكاة) في حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . . بل هي شيء يشبه أكل الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك الرمق ، ولكنها لا تعالج مستوى الهبوط المعيشي للأمم والجماعات . »

تشدد الأستاذ صاحب (من هنا نبدأ) تشدداً كبيراً في تحقير الصدقة ، وأطال في تحقيرها حتى قال متابعاً طريقته : « إنها أوساخ الناس ، إنها غسالة ذنوب الناس . فكيف نتصور أن يرفع الإسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والأوساخ ؟ إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات . »

وبعد هذه الثورة الشعواء التي لا موجب لها على الصدقة ، ولم يقل أحد بأنها مصدر كسب شريف ، أو وسيلة أريستوقراطية للمعيشة ، بل هي محتقرة حتى لدى الفقراء أنفسهم ، تدارك موقفه فقال :

« وكانت الصدقة في عصر الرسول ، وفي لغة القرآن ، تعني (ضريبة مفروضة) هي ضريبة الزكاة ، التي نزل فيها : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، » وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات ، فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظم والمفصلات . » ثم قال : « إن الزكاة وإن سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل

الاختلاف لانها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافلة من نوافل البر والإحسان . .

بعد ما اعترف الاستاذ خالد أخيرا بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) وأنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف ، عاد فقال :

« فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه الغسالات والاوزاخ ؟ »

فهل من المنطق السليم أن الاستاذ بعد ما يفرق بين الصدقة والزكاة ، ويعترف بأن مراد القرآن منها في موضوع الزكاة أنها (ضريبة مفروضة) ، وبعد ما يصرح المصلحون المعاصرون أنهم إنما يقصدون بما يكتبون هذه الضريبة المفروضة ، يعود فيقول : « فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة بهذه الغسالات والاوزاخ ؟ إننا نلتقي على الأمة أعظم درس في الهوان والضعفة حين ندعها تفهم أن طريق إصلاحها وشيوع العدالة فيها هي الصدقات ، ثم يمضى فيملا نحو صفحتين من كتابه في تحقير الصدقات وفي أنها أوساخ وأقذار !! »

ألا يعلم الاستاذ أن واحدا من الذين كتبوا في موضوع رفع مستوى الحياة في هذه الأمة وخاصة في العهد الأخير لم يقصد بذلك الاعتماد على الصدقات ، بل على تلك الضريبة المفروضة وهي الزكاة ؟ وإذا كان يعلم ذلك فهل عثر على قول لأحد العلماء أو طلبة العلم أو الشعاذين أنفسهم ، يعتبر التصدق بالقرش والقرشين وسيلة لإصلاح المجتمعات ؟

إذا كان يقول لا ، فما حكمة إسهابه في هذا الموضوع ، ونقل كل ما ورد في تحقيره عن الرسول والأئمة وخاصة المسلمين وعامتهم حتى ملأ به صحفا من كتابه ؟ وإذا كان يعترف بأن الزكاة (ضريبة مفروضة) على المسلمين ، فهل تعتمد الدول الأوروبية الكبرى كالولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا وغيرها على غير (الضرائب) التي تفرضها على الناس لوقاية الاجتماع من شرور الثورات والانقلابات ، ولتحسين حال أهل الإقلال في الجماعات ؟

محمد فريد وجدي

القرآن وقواعد النحو

لفضيلة الأستاذ الشيخ محمد محمد المدني

قرأت في جريدة البلاغ كلمة في مقال للدكتور زكي مبارك ، يذكر فيها أن القرآن الكريم ربما تخطى قواعد النحو لغرض موسيقى ، ودلل لذلك بقوله تعالى : « وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت ، فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين » . والشاهد في قوله : « وأكن » بالجزم مع أنه معطوف على منصوب هو قوله : « فأصدق » ، كما مثل بقوله تعالى : « والفجر ، وليال عشر ، والشفع والوتر ، والليل إذا يسر » ، حيث كان القياس أن تكون : « والليل إذا يسر » بإثبات الياء .

وهذا الموضوع : موضوع الزعم بأن القرآن قد تخطى القواعد النحوية ليس بالجديد ، فكثيراً ما نجد بعض المفسرين يخوض فيه مقررراً ما يراه إثباتاً أو نفيّاً ، وقد مر بي قريباً الاشتغال بذلك حينما كنت مكلفاً بالظر في كتاب « الفرقان » ، الذي صودر ، وقد جاء صاحبه بكثير من الآيات التي زعم أن فيها مخالفة للقواعد في معرض الإزراء بالقراءات ، أو التهجين لما فعله الأصحاب في رسم المصحف ، والحمد لله الذي وفق لإظهار شأن هذا الكتاب ، وضعف ما جاء به ، حتى حكم مجلس الدولة برفض طلب التعويض ، وإلغاء المصادرة ، بعد دفاع طويل ومذكرات مختلفة . وقد تحدثت عن هذا الموضوع من قبل فلا أعود إليه . وإنما أريد أن أقول : إن مثل من يقرر أن القرآن قد تخطى قواعد النحو كمثل من يقرر أنه تخطى قواعد الأصول ، وكلاهما غلط ، لأن الأصول حين يقرر قاعدة ، فإنما يقررهما بعد تتبع ما يدل عليها من كتاب الله وسنة رسوله ، وما يقضي به الفهم فيها ، فإذا أن يكون تتبعه صحيحاً كاملاً فلا نجد خلافاً بين القاعدة التي قررهما ، وآية ما من الكتاب الكريم ، وإذا أن يكون تتبعه ناقصاً

فنجده خلافاً بين القاعدة وبعض ما جاء في القرآن ، وحينئذ لا يقال إن القرآن خرج على قواعد الأصول ، ولكن يقال إن هذه القواعد قصرت في التبع أو قصر أصحابها ، وكان عليهم أن يكونوا أدق في وضع القاعدة .

وربما كان الأمر بالنسبة للقواعد النحوية أو منح : فإن النحو هو القواعد المستنبطة من كلام العرب للأحوال الإعرابية والبنائية التي يكون عليها الكلام ، ولا شك أن القرآن الكريم هو أول حجة في جواز شيء أو عدم جوازه ، وإذا كان بعض القواعد النحوية ليس له شاهد إلا كلمة أو بيت من الشعر نطق به أعرابي ، فما بالك بشيء يحجى به القرآن الكريم .

وأذكر على سبيل الاستطراف ما قرأته قديماً في بعض كتب الأدب من أن الفرزدق كان يمزح مع عبد الله بن إسحق النحوي - فيما أظن - فقال له :

ولو كان عبد الله مولى هجوته . ولكن عبد الله مولى مواليا

فقال له عبد الله : لقد أخطأت فأصلح خطأك . إنما هي مولى موال ، لا مولى مواليا ، فأجابه الفرزدق على الفور : إن علياً أن أقول ، وإن عليك أن تضع القاعدة .

يشير بذلك إلى أن الشاعر المحتج بقوله يقول ما شاء على فطرته وبجيتته ، ولا يعد قوله خطأ ولا لحناً ، ولو خالف قاعدة مشهورة عند النحاة .

ولذلك يقتصد بعض المتحدثين في هذا فيقولون : جاء كذا على الكثير ، وخالف كذا القاعدة المشهورة ، إلى غير ذلك من العبارات التي لا يفهم منها التخطئة من قريب أو من بعيد .

• • •

بعد هذا ننظر في الآيتين اللتين استشهد بهما الدكتور زكي مبارك لنعلم هل خالفنا القواعد حقاً ؟

قال الطبرسي في تفسير مجمع البيان ، وهو بصدد الكلام عن قوله تعالى وفأصدق وأكن من الصالحين : قرأ أبو عمرو : وأكون ، بالنصب ، والباقون : وأكن ، بالجرم . . والحجة — أي حجة القراءتين — أن من قرأ وأكن عطفه

على موضع قوله فأصدق ، لأنه في موضع فعل مجزوم ، ألا ترى أنك إذا قلت :
أخبرني أصدق ، كان جزماً بأنه جواب الجزاء ، وقد أغنى السؤال عن ذكر الشرط ،
والتقدير : أخبرني فإنك أن تؤخرني أصدق ، فلما كان الفعل المنتصب بعد الفاء
في موضع فعل مجزوم بأنه جواب الشرط ، تحمّل قوله « وأكن ، عليه ، ومثل
ذلك قوله تعالى « ومن يضل الله فلا هادي له ، ويذرهم ، لما كان فلا هادي له
في موضع فعل مجزوم ، حمل « ويذرهم ، عليه . . ومثل ذلك قول الشاعر :

أَيّاً سَلَكَتْ فَإِنِّي لَكَ كَاشِحٌ وَعَلَى انْتِفَاصِكَ فِي الْحَيَاةِ وَأَزْدَدُ

تحمل « وأزدد ، على موضع الفاء وما بعدها ، وأما قول أبي عمرو « وأكون ،
فإنما حمله على اللفظ دون الموضع ، وكان الحمل على اللفظ أولى لظهوره
في اللفظ وقربه . .

فمن هذا الذي ذكره الطبرسي في توجيه قراءة الجزم يتبين أن لا خطأ ولا تخطئ
وأزيد ما ذكره إيضاحاً في ناحية ما يشير إليه بقوله إن « أكن ، في موضع الجزم
فأقول : إن إيراد ما قبل هذه الجملة يعين على فهم المراد ، فالله تعالى يقول
في سورة المنافقين :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ، وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ، وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ
فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصْدُقْ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَلَنْ
يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ . .

فهذه الآيات تتحدث عن شأن الإنفاق والتصدق وما يجب على المؤمنين
فيه ، مقابلة بذلك ما جاء قبلها في قوله تعالى عن المنافقين : « هم الذين يقولون
لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ، ولله خزائن السموات والأرض
ولكن المنافقين لا يفقهون ، فهم تبني الصلاح وعدمه في هذا المقام على التصدق
والبذل ، والضعف والبخل ، فمن تصدق وبذل فهو الصالح ، ومن بخل وأبى فهو
المنافق الخادع ، فإذا قال امرؤ حين يأتيه الموت « رب لولا أخرتني إلى أجل
قريب فأصدق وأكن من الصالحين ، كان المعنى الذي يوحى به السياق ، والذي
يأتي في ذهن قائل هذا الكلام : وإن أصدق أكن من الصالحين ، وتقدير

الكلام بحسب ترتيب المعنى المفهوم من جو الآيات : أخرنى فإنك إن أخرتني سأصدق ، وإن أتصدق أكن من الصالحين ، فالمراد الربط بين الصدقة والكون من الصالحين ، وليس المراد حصول الصدقة والكون من الصالحين بعد التأخير ، وإنما يقال ذلك في قراءة « وأكون » .

أما قوله تعالى « والليل إذا يسر » فيقول فيه الطبرسي أيضا :

« قرأ أهل المدينة وأبو عمرو وقتيبة عن الكسائي « والليل إذا يسر » بإثبات الياء في الوصل وحذفها في الوقف » وقرأ ابن كثير ويعقوب بإثبات الياء في الوصل والوقف ، والباقون بالحذف فيهما .

ثم وجه هذه القراءات ، فذكر أن قراءة حذف الياء ترجع إلى قاعدة ذكرها سيبويه من أن ما لا يحذف في الكلام وما يختار فيه ألا يحذف نحو الفاضى بالآف واللام ؛ يحذف إذا كان في قافية أو فاصلة ، قال سيبويه : والفاصلة نحو « والليل إذا يسر » و « يوم التناد » و « الكبير المتعال » فإذا كان شئ من ذلك في كلام تام شبه بالفاصلة ، فحسن حذفها ، نحو قوله تعالى « ذلك ما كنا نبغ » .

بهذا يتبين أن القاعدة لا تضيق عن حذف الياء كما زعم من زعم ، والله المستعان على ما يصفون ؟

السيادة

نظر رجل إلى معاوية وهو غلام صغير فقال : إني أظن أن هذا الغلام سيسود قومه ، فسمعت أمه هند فقالت : تكلمته إذا لم يسد غير قومه .

ودخل ضمرة بن أبي ضمرة على النعمان بن المنذر وكانت به دماة شديدة ، فالتفت النعمان إلى أصحابه وقال : تسمع بالمعيدي خير من أن تراه .

فقال ضمرة : أيها الملك إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فإن قال قال ببيان ، وإن قاتل قاتل بجنان .

قال النعمان : صدقت ، وبحق سوءك قودك .